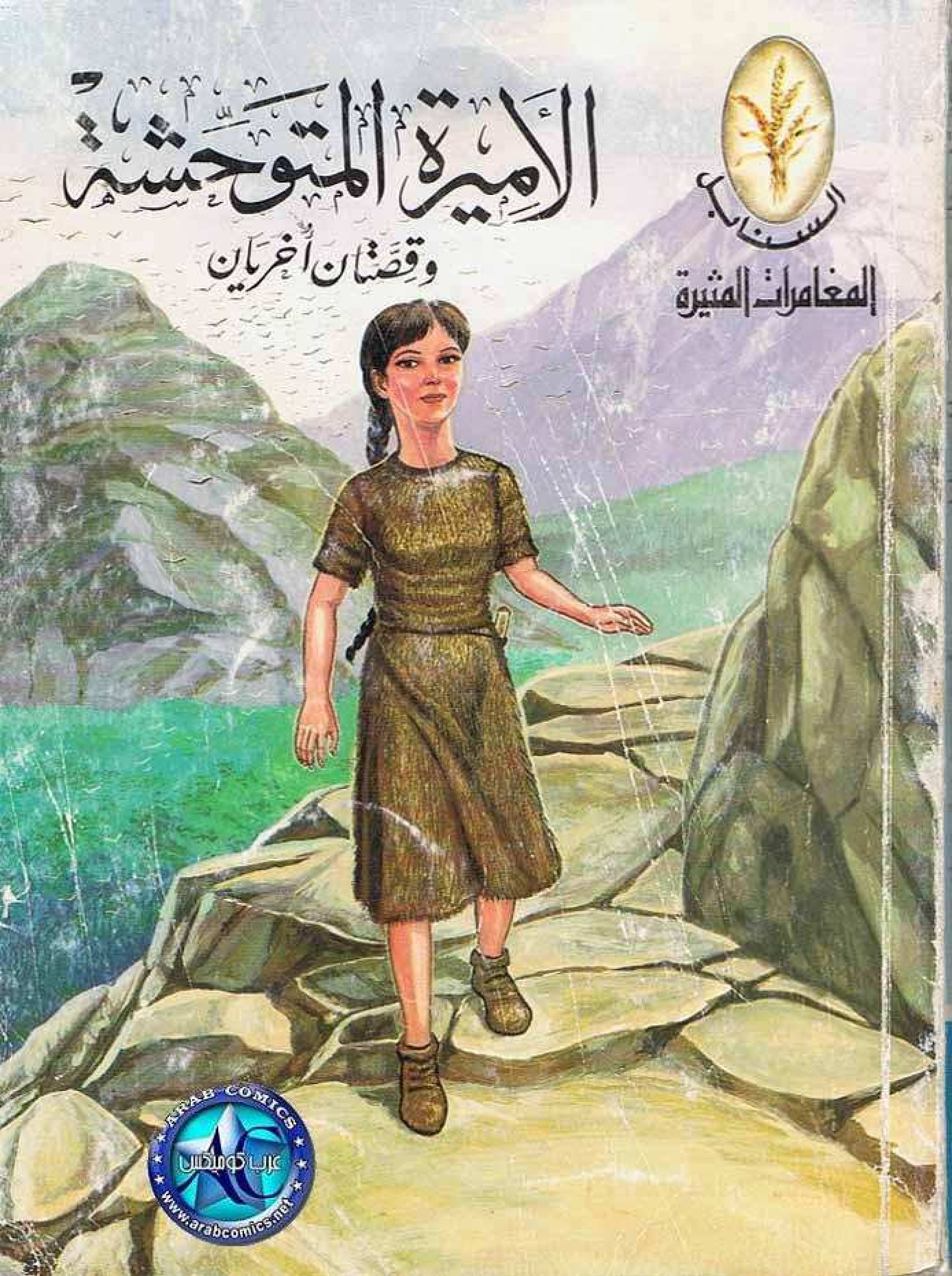
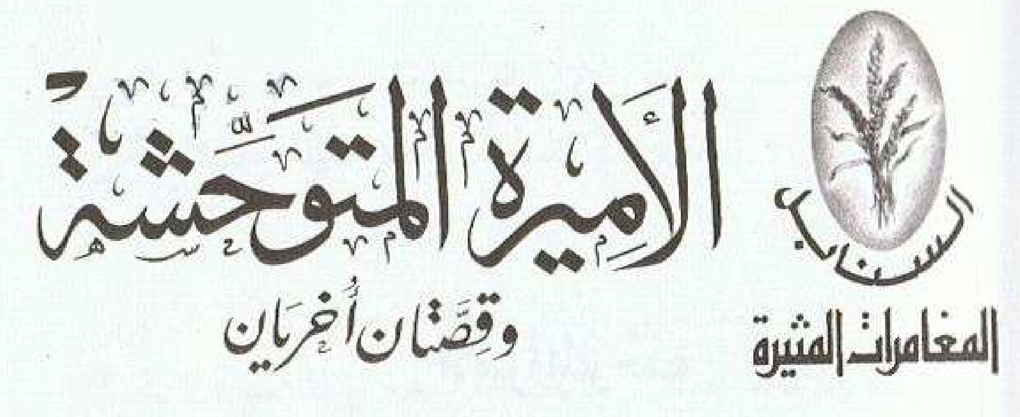

الأميرة المتوحشة
وقصتان أخريان
السنابل
المغامرات المثيرة
ARAB COMICS
عرب كوميكس
www.arabcomics.net







تأليف : مجدي صابر

رسوم : ممدوح الفرماوي

مكتبة لبنان

رئيس التحرير : وجدي رزق غالي

١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة ، مصر

الطبعة الأولى ١٩٩٢

رقم الإيداع : ٩٦٧٥ / ١٩٩١

الترقيم الدولي : ISBN ٩٧٧ - ١٦ - ٠٠٧٥ - ٣

طبع في دار نوبار للطباعة

الأميرة المتوحِّشة

مِنْ قديمِ الزَّمانِ ، كانَتْ ثَمَّةَ مَمْلَكَةٌ تُسَمَّى « مَمْلَكَةَ التِّلالِ السَّبْعَةِ » ، وَقَدْ أُطْلِقَ عَلَيْها هَذا الاسْمُ لأنَّها كانَتْ تَقَعُ في حِضْنِ وادٍ عَلَيْها تِلالٌ سَبْعَةٌ تُحيطُها مِنْ كُلِّ الجِهاتِ بِالمَنَعَةِ وَالصَّلابَةِ . وَكانَ لِهَذِهِ التِّلالِ السَّبْعَةِ فَضْلٌ عَظيمٌ على المَمْلَكَةِ ؛ لأنَّها حَمَتْها مِنْ شَرِّ هُجومِ الأَعْداءِ مِنَ المَمالِكِ المُجاوِرَةِ ؛ فَقَدْ كانَتْ أَشْبَهَ بِالقِلاعِ وَالحُصونِ الَّتي يَسْتَحيلُ اخْتِراقُها لِلْوُصولِ إلى مَمْلَكَةِ التِّلالِ السَّبْعَةِ ، الواقِعَةِ وَسَطَ الوادي العَميقِ المُتَّسِعِ .

وَيُحْكى أَيْضاً أنَّ هَذِهِ المَمْلَكَةَ كانَتْ تَرْفُلُ في حُلَلِ النَّعيمِ وَالعِزِّ ، لِخَيْراتِها الوَفيرَةِ ، وَأَرْضِها الزِّراعِيَّةِ الخِصْبَةِ ، وَأَنْهارِها العَذْبَةِ ؛ فَنَعِمَ شَعْبُها بِالسَّعادَةِ وَالرّاحَةِ ، وَعاشَ أَهْلُها الآمِنونَ في هَناءَةٍ مُتَّصِلَةٍ ، وَرَخاءٍ مُقيمٍ .

وَكانَ يَحْكُمُ مَمْلَكَةَ التِّلالِ السَّبْعَةِ مَلِكٌ عادِلٌ سَديدُ الرَّأْيِ يُسَمَّى المَلِكَ « زيدان » ، وَكانَتْ لَهُ زَوْجَةٌ جَميلَةٌ حَصيفَةٌ تُدْعى المَلِكَةَ « أَسْمَهان » .

كَما كانَ لِلْمَلِكِ وَزيرٌ يُدْعى الوَزيرَ « سَعْفان » ، وَكانَ وَزيراً ماكِراً ، مَلامِحُهُ خَبيثَةٌ . وَتَسْتَطيعُ مِنْ خِلالِ المَلامِحِ أَنْ تَخْتَرِقَ السَّطْحَ وَتَقْرَأَ الأَعْماقَ ، فَلَسْتَ مُحْتاجاً لِلإقامَةِ في تِلْكَ المَمْلَكَةِ طَويلاً حَتّى تَعْرِفَ ذَلِكَ ، وَإِنَّما كانَتْ مَلامِحُهُ تَشي بِأَنَّهُ لَيْسَ ماكِراً فَحَسْبُ ، بَلْ خَبيثاً خَباثَةً كَريهَةً ، وَقَلْبُهُ مَليءٌ بِالحِقْدِ الأَسْوَدِ وَكَراهَةِ المَلِكِ زيدان وَزَوْجَتِهِ المَلِكَةِ أَسْمَهان . غَيْرَ أَنَّ المَلِكَ وَالمَلِكَةَ كانا يَظُنّانِ بِهِ الخَيْرَ وَالحُبَّ ، فَقَدْ كانَ الوَزيرُ يُخْفي ضَغينَتَهُ في قَلْبِهِ ، وَلا يُظْهِرُ لِلْمَلِكِ وَالمَلِكَةِ سِوى كُلِّ الحُبِّ وَالوُدِّ .

وَمَضَتْ سَنَواتٌ بِمَمْلَكَةِ التِّلالِ السَّبْعَةِ وَهِيَ عَلى هَذِهِ الحالِ بِدونِ أَنْ يُعَكِّرَ صَفْوَها شَيْءٌ . غَيْرَ أَنَّ المَلِكَ زيدان أَصْبَحَ ذاتَ يَوْمٍ وَقَدِ اخْتَلَفَ عَمّا كانَ عَلَيْهِ بِالأَمْسِ ؛ إِذْ رَكِبَتْهُ الهُمومُ وَالأَحْزانُ . وَلاحَظَتِ المَلِكَةُ شُرودَ زَوْجِها المَلِكِ وَسوءَ حالِهِ ، فَسَأَلَتْهُ بِرِفْقٍ وَحُبٍّ : « ماذا يَشْغَلُ بالَ مَوْلايَ المَلِكِ زيدان ؟»

رَدَّ المَلِكُ كَسيفاً : « لا يَشْغَلُني سِوى شَيْءٍ واحِدٍ ، هُوَ أَنَّنا لَمْ نُنْجِبِ ابْناً يَرِثُ المُلْكَ مِنْ بَعْدِنا . وَأَخْشى أَنْ يَأْتِيَ غاصِبٌ مُتَجَبِّرٌ

وَيَسْتَوْلِيَ عَلى عَرْشِ المَمْلَكَةِ بَعْدَ وَفاتي ، فَيُحيلَ رَغَدَ عَيْشِها وأَمانَ أَهْلِها وَضَمانَ رِزْقِها إلى شَقاءٍ ، وَعَدْلَها إلى جَوْرٍ ، وَسَعْدَها إلى عَذابٍ مُتَّصِلٍ يُذيقُهُ لأهالي المَمْلَكَةِ الطَّيِّبينَ البُسَطاءِ . وَالأَمَرُّ مِنْ ذلِكَ أَنْ يَنْقَلِبَ العَدْلُ الَّذي يُعَشِّشُ في جَنَباتِها وَيُمْسِكُ أَرْكانَها إلى ظُلْمٍ .»

هَزَّتِ المَلِكَةُ رَأْسَها بِحُزْنٍ ، فَقَدْ كانَ الأَمْرُ نَفْسُهُ يَشْغَلُها ، وَهِيَ تَتَذَكَّرُ شَيْئاً لا يَجْري عَلَيْهِ النِّسْيانُ ؛ وَهُوَ أَنَّهُ قَدْ مَرَّتْ سَنَواتٌ وَسَنَواتٌ عَلى زَواجِها بِالمَلِكِ زيدان وَلَمْ يَرْزُقْهُما اللّهُ ابْناً يَعْتَلي عَرْشَ المَمْلَكَةِ مِنْ بَعْدِهِما .

رَبَتَتِ المَلِكَةُ عَلى كَتِفِ زَوْجِها ؛ مُهَوِّنَةً عَلَيْهِ الحُزْنَ وَقالَتْ : « إنَّها إرادَةُ اللّهِ ، وَفي إرادَةِ اللّهِ خَيْرُ النّاسِ دائِماً ؛ فَلْنَتَضَرَّعْ إلَيْهِ وَنُصَلِّ لَهُ ، عَسى أَنْ يَرْزُقَنا بِما نُحِبُّ وَنَشْتَهي .»

وَفي الحالِ رَكَعَ المَلِكُ زيدان وَالمَلِكَةُ أَسْمهان وَعُيونُهُما مُبَلَّلَةٌ بِالدُّموعِ ، وَفي قَلْبَيْهِما رَجاءٌ حارٌّ ، أَنْ يُنْعِمَ اللّهُ عَلَيْهِما بِفَيْضِ بَرَكَتِهِ وَ واسِعِ رَحْمَتِهِ ، فَيَرْزُقَهُما ابْناً يَرِثُ العَرْشَ بَعْدَ المَلِكِ زيدان .

وَبَعْدَ أَشْهُرٍ قَليلَةٍ ظَهَرَتْ عَلاماتُ الحَمْلِ عَلى المَلِكَةِ أَسْمهان ؛

فَشَمَلَتْهُما سَعادَةٌ طاغِيَةٌ ، وَأَخَذَ المَلِكُ يَرْفَعُ يَدَيْهِ لِلسَّماءِ شاكِراً نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْهِما ، واسْتِجابَتَهُ لِدُعائِهِما وَصَلاتِهِما وَحُسْنِ نِيَّتِهِما ، وَإِرادَتِهِما الإِصْلاحَ في حَياتِهِما وَمِنْ بَعْدِهِما لِلنّاسِ أَجْمَعينَ .

وَذاتَ يَوْمٍ حَضَرَتِ المَلِكَةَ أَماراتُ الوَضْعِ ، فَاسْتَدْعى المَلِكُ عَلى عَجَلٍ أَمْهَرَ الأَطِبّاءِ . وَ وَقَفَ المَلِكُ زيدان خارِجَ حُجْرَةِ الوِلادَةِ يَذْرَعُ الأَرْضَ قَلِقاً عَلى صِحَّةِ زَوْجَتِهِ الغالِيَةِ ، وَيَدْعو اللّهَ أَنْ تَلِدَ بِالسَّلامَةِ .

وَبِجِوارِهِ وَقَفَ الوَزيرُ سَعْفان يُحاوِلُ أَنْ يُطَمْئِنَ المَلِكَ وَيَبُثَّ الرّاحَةَ في قَلْبِهِ ، بَيْدَ أَنَّ الوَزيرَ كانَ يَغْلي مِن فَوْرَةِ الغَضَبِ وَالكُرْهِ ، وَيَكادُ قَلْبُهُ يَنْفَطِرُ مِنَ الحِقْدِ ؛ فَقَدْ كانَ يَطْمَعُ في أَنْ يَموتَ المَلِكُ زيدان بِدونِ أَنْ يُنْجِبَ طِفْلاً يَرِثُ عَرْشَهُ ، فَيَعْتَلِيَ هُوَ العَرْشَ وَيَصيرَ مَلِكَ البِلادِ .

أَما وَقَدْ تَغَيَّرَتِ الأَحْوالُ ، وَها هُوَ المَلِكُ زيدان يوشِكُ أَنْ يُرْزَقَ بِابْنٍ ، فَقَدْ ضاعَتْ أَحْلامُ الوَزيرِ سَعْفان وَتَبَدَّدَتْ مَشاريعُهُ وَأَوْهامُهُ ، فَعَضَّ عَلى نَواجِذِهِ يَكادُ يَتَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ .

وَخَرَجَ الطَّبيبُ مِنْ حُجْرَةِ المَلِكَةِ بِوَجْهٍ مُشْرِقٍ ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ المَلِكُ في لَهْفَةٍ ، فَقالَ لَهُ الطَّبيبُ : « مُبارَكٌ أَيُّها المَلِكُ ؛ لَقَدْ رَزَقَكَ

اللّهُ طِفْلَةً جَميلَةً ، أَجْمَلَ طِفْلَةٍ رَأَيْتُها في حَياتي .»

ارْبَدَّ وَجْهُ المَلِكِ وَتَغَيَّرَ لَوْنُهُ مِنَ المُفاجَأَةِ ، وَأَصابَهُ الذُّهولُ وَالوُجومُ ؛ فَقَدْ كانَ يَتَمَنّى أَنْ يَهَبَ لَهُ اللّهُ ابْنًا يَرِثُ المُلْكَ بَعْدَهُ ، أَما وَقَدْ جاءَتِ ابْنَةٌ ، فَقَدْ كانَ مُسْتَحيلاً أَنْ تَعْتَلِيَ عَرْشَ المَمْلَكَةِ ، لأَنَّ قانونَها يَنُصُّ عَلى أَنَّ مَنْ يَعْتَلي العَرْشَ ، يَجِبُ أَنْ يَكونَ ذَكَرًا .

أَمّا الوَزيرُ سَعْفان فَشَمِلَتْهُ سَعادَةٌ بالِغَةٌ أَخْفاها في وَقْتِها ، وَراحَ يُواسي المَلِكَ مُتَظاهِرًا بِالحُزْنِ .

وَدَخَلَ المَلِكُ إلى حُجْرَةِ زَوْجَتِهِ ، فَوَقَعَتْ عَيْناهُ عَلى ابْنَتِهِ ، وَكانَتْ غايَةً في الرِّقَّةِ وَالجَمالِ ، لَها شامَةٌ حَمْراءُ عَلى كَتِفِها اليُسْرى ، فَقَبَّلَها في رِقَّةٍ وَداعَبَها في حَنانٍ . وَالْتَفَتَ إلى زَوْجَتِهِ قائِلاً : « حَمْدًا لِلّهِ عَلى سَلامَتِكِ ، يا زَوْجَتِيَ العَزيزَةَ .»

فاضَتْ عَيْنا المَلِكَةِ أَسْمَهان بِالدُّموعِ ، وَهِيَ تَقولُ : « كُنْتُ أَتَمَنّى لَوْ وَهَبْتُ لَكَ طِفْلاً لِنُحَقِّقَ آمالَنا . إنَّ اللّهَ ، يا مَوْلايَ ، يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إناثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكورَ ، أَوْ يَرْزُقُهُمْ إناثًا وَذُكورًا ، وَيَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقيمًا .»

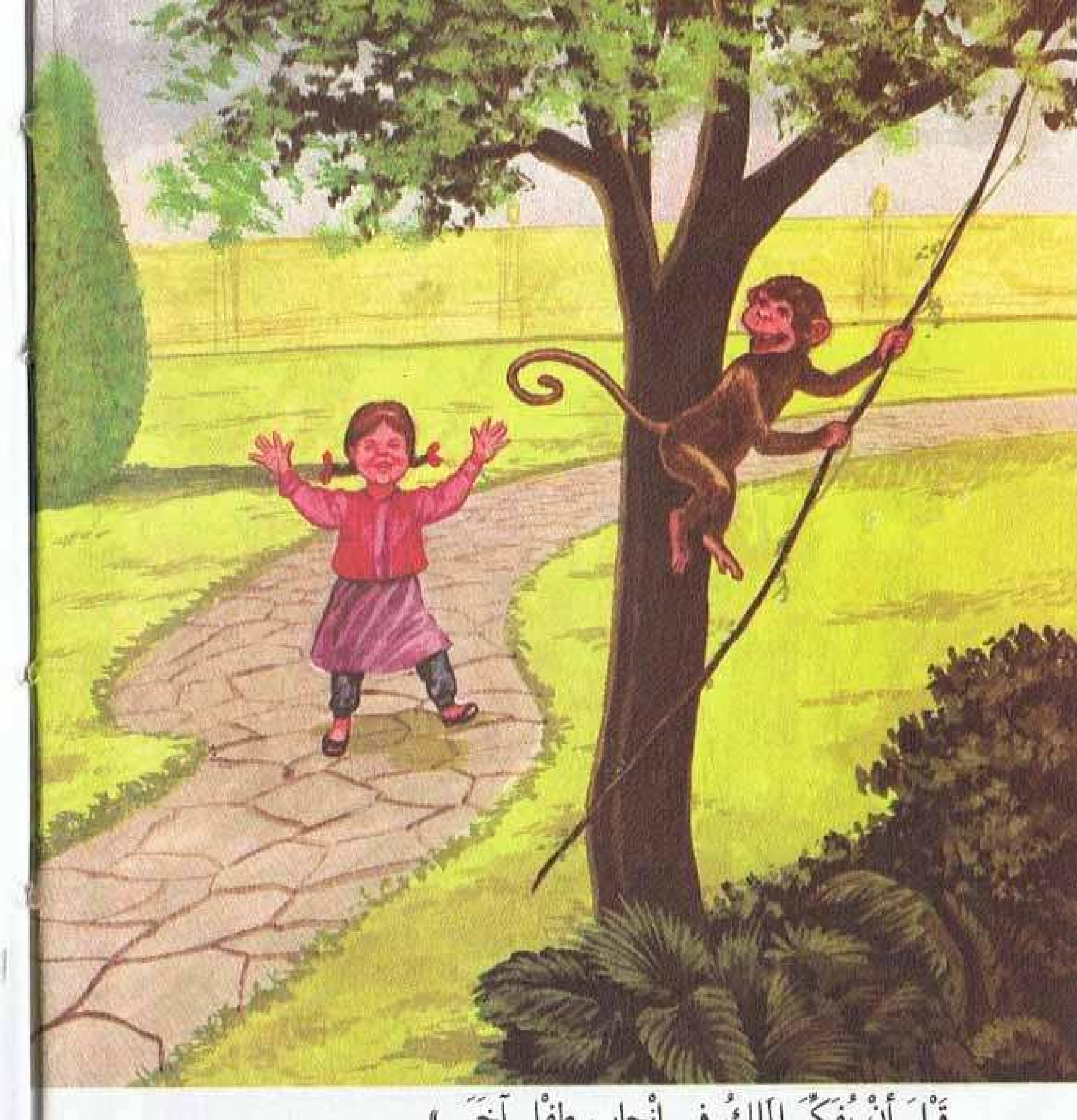
قالَ المَلِكُ وَهُوَ يُجَفِّفُ دُموعَ زَوْجَتِهِ : « كَيْفَ تُظْهِرينَ نَدَمًا

عَلى فِعْلٍ لا تَمْلِكينَ مِنْ أَمْرِهِ شَيْئًا ؟ إنَّ اللّهَ هُوَ الَّذي وَهَبَ لي وَوَهَبَ لَكِ هَذِهِ الابْنَةَ ، وَاللّهُ لا يَهَبُ عَطِيَّتَهُ لِمَخْلوقٍ جُزافًا ، فَلْنَشْكُرْهُ وَلْنُرَبِّ هَذِهِ الابْنَةَ وَنُحْسِنْ تَهْذيبَها وَتَعْليمَها ، وَسَوْفَ أُسَمّيها الأَميرَةَ الفاتِنَةَ ، لأَنَّني لَمْ أَرَ مِثْلَ جَمالِها في حَياتي قَطُّ .»

حَمِدَتِ المَلِكَةُ أَسْمَهان رَبَّها عَلى أَنَّ رِسالَةَ الجَمالِ هَذِهِ قَدْ وَصَلَتْ إلى شُعورِ المَلِكِ وَإحْساسِهِ ، وَعَرَفَ فَضْلَ اللّهِ وَرَحْمَتَهُ فيها . بَلْ إنَّهُ لا يَكادُ يَكُفُّ عَنْ مُداعَبَتِها وَتَقْبيلِها وَالتَّفَرُّغِ بِضْعَ دَقائِقَ كُلَّ حينٍ لِحَمْلِها وَهَدْهَدَتِها وَالتَّمَلّي بِفِتْنَتِها .

وَمَرَّ عامانِ وَالأَميرَةُ تَنْمو في كَنَفِ وَالِدَيْها ، وَتُلاقي بالِغَ العِنايَةِ وَالرِّعايَةِ ، وَسَعِدَ بِها المَلِكُ وَالمَلِكَةُ ، وَتَناسَيا رَغْبَتَهُما في إنْجابِ ابْنٍ آخَرَ يَرِثُ عَرْشَ المَمْلَكَةِ ، بَعْدَ أَنْ أَيْقَنا أَنَّها مَشيئَةُ اللّهِ وَحِكْمَتُهُ في أَنْ يَهَبَ لَهُما ابْنَةً لا ابْنًا . وَكانَ لِلطِّفْلَةِ الصَّغيرَةِ قِرْدٌ صَغيرٌ أَحْضَرَهُ أَحَدُ خَدَمِ القَصْرِ ، بَعْدَ أَنْ عَثَرَ عَلَيْهِ أَمامَ الأَبْوابِ ، في إحْدى لَيالي الشِّتاءِ البارِدَةِ ، فَأَعْطاهُ لِلأَميرَةِ الصَّغيرَةِ ؛ فَسَعِدَتْ بِهِ الطِّفْلَةُ ، وَصارَتْ تَلْعَبُ وَتَلْهو مَعَهُ .

أَمّا الوَزيرُ سَعْفان فَكانَ يَقولُ لِنَفْسِهِ : « إلى مَتى أَنْتَظِرُ مَوْتَ المَلِكِ لأَعْتَلِيَ العَرْشَ ؟ إنَّهُ يَبْدو في أَتَمِّ صِحَّةٍ وَأَحْسَنِ حالٍ ، وَلَعَلّي أَموتُ قَبْلَهُ لَوِ انْتَظَرْتُ مَوْتَهُ ؛ فَلا بُدَّ مِنْ أَنْ أَعْجَلَ بِالفَوْزِ بِالعَرْشِ



قَبْلَ أنْ يُفكِّرَ المَلِكُ في إنْجابِ طِفْلٍ آخَرَ .»

وكانَ لِلْوزيرِ قِلّةٌ مِنْ أتْباعِهِ الخَوَنَةِ ، أغْراهُمْ بِالمالِ والوُعودِ ، فَأسْرَعَ يُخَطِّطُ مَعَهُمْ لِلاسْتيلاءِ عَلى عَرْشِ المَمْلَكَةِ ، والقَبْضِ عَلى المَلِكِ وَزَوْجَتِهِ المَلِكَةِ أسْمَهان .

وَلَمْ تَمْضِ سِوى ساعاتٍ ، حَتّى هَجَمَ رِجالُ الوَزيرِ عَلى المَلِكِ وَالمَلِكَةِ في قاعَةِ العَرْشِ وَهُما – كَعادَتِهِما – بِلا حُرّاسٍ ، فَقَبَضوا عَلَيْهِما ، وَاقْتادوهُما إلى سِجْنٍ بَعيدٍ ، يَقَعُ في جُبٍّ عَميقٍ وَسْطَ التِّلالِ ، لا يَعْرِفُ مَكانَهُ سِوى الوَزيرِ سَعْفان ، وَلا يُمْكِنُ لإنْسانٍ الوُصولُ إلَيْهِ أبَدًا .

وَأعْلَنَ الوَزيرُ في الحالِ تَنْصيبَ نَفْسِهِ مَلِكًا عَلى مَمْلَكَةِ التِّلالِ السَّبْعَةِ ؛ فَذَهِلَ النّاسُ ، وَأيْقَنوا بِالشَّرِّ القادِمِ ، وَلكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَطيعوا إبْداءَ أيِّ اعْتِراضٍ ، بَعْدَ أنْ هَدَّدَ الوَزيرُ مَنْ يُعارِضونَهُ بِقَتْلِهِمْ وَبَعْثَرَةِ رُءوسِهِمْ فَوْقَ التِّلالِ ، أوْ تَعْليقِ جُثَثِهِمْ عَلى جُذوعِ النَّخيلِ .

وَبِذلِكَ باتَ الوَزيرُ سَعْفان مَلِكًا عَلى البِلادِ بَعْدَ أنْ أشاعَ مَوْتَ المَلِكِ زيدان وَالمَلِكَةِ أسْمَهان . وَفي الحالِ أمَرَ بِفَرْضِ الضَّرائِبِ الباهِظَةِ عَلى النّاسِ ، وَمُقاسَمَتِهِمْ مَحاصيلَهُمْ وَدَوابَّهُمْ ، وَالتَّحَكُّمِ في كُلِّ شُئونِهِمْ . وَشَرَعَ رِجالُهُ يَنْشُرونَ الذُّعْرَ وَالرُّعْبَ في طولِ البِلادِ وَعَرْضِها .

وَبَكى النّاسُ مَصيرَ المَلِكِ وَزَوْجَتِهِ ، وَتَرَحَّموا عَلى أيّامِهِما السَّعيدَةِ وَحُكْمِهِما العادِلِ ، وَاسْتَسْلَموا لِلْوَزيرِ الغاصِبِ لا يَجْرُءونَ عَلى مُخالَفَتِهِ أوْ مُمانَعَتِهِ ، خَوْفًا مِنْ شِدَّةِ بَطْشِهِ . وَحَتّى قِرْدُ الأميرَةِ

الصَّغيرةِ اختَفى وَهَرَبَ من القَصْرِ ، كَأَنَّهُ يَخْشى على حَياتِهِ مِنَ شَرِّ الوَزيرِ الغادِرِ .

وَجاءَ أَحَدُ أعْوانِ الوَزيرِ وَيُدْعى « حمدان » ، وَهَمَسَ في أُذُنِهِ: « مَوْلايَ ! لَقَدِ اسْتَتَبَّ الأَمْرُ لَنا ، وَنِلْنا ما نَشْتَهي ، وَلكِنْ بَقِيَ شَيْءٌ وَحيدٌ ، وَهُوَ أَنْ نَتَخَلَّصَ مِنَ الأَميرَةِ الفاتِنَةِ ؛ إِذْ أَخْشى إِنْ كَبِرَتْ ، أَنْ تُطالِبَ بِعَرْشِ أَبيها ، وَأَنْ يُناصِرَها الشَّعْبُ في ذَلِكَ .»

رَدَّ الوَزيرُ : « نَعَمْ ، نَعَمْ . كَيْفَ فاتَني ذَلِكَ ؟ يَجِبُ أَنْ نَتَخَلَّصَ مِنَ الأَميرَةِ الطِّفْلَةِ في الحالِ .»

قالَ حِمْدانُ : « أَ نَقْتُلُها ، يا مَوْلايَ ، في إِحْدى غُرَفِ القَصْرِ السِّرِّيَّةِ وَنُخْفي أَمْرَ مَصيرِها ؟»

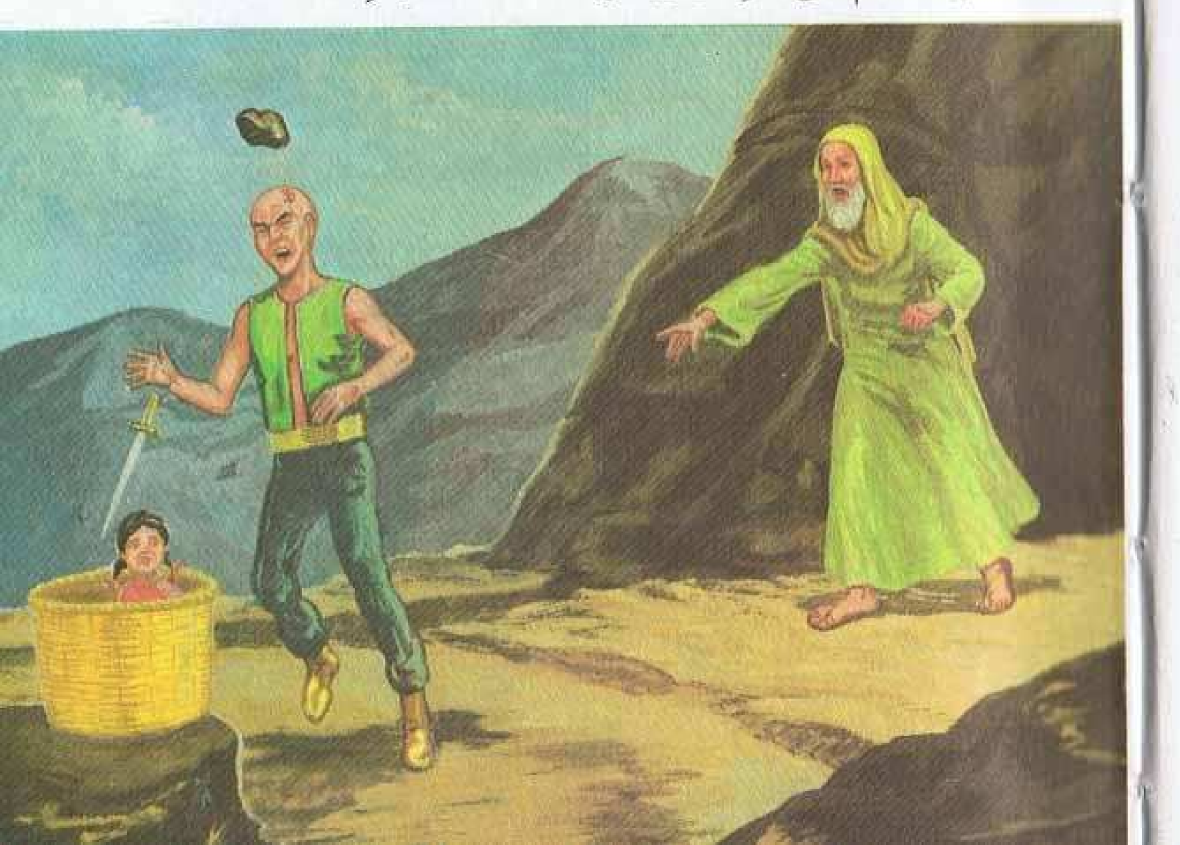
فَكَّرَ الوَزيرُ وَقالَ : « أَخْشى إِنْ فَعَلْنا ذَلِكَ أَنْ يَتَسَرَّبَ الأَمْرُ إِلى الشَّعْبِ ، فَيَثورَ وَيَحْتَجَّ وَيُسَبِّبَ لَنا القَلاقِلَ . مِنَ الأَفْضَلِ أَنْ تَأْخُذَها بَعيداً وَتَقْتُلَها خَلْفَ التِّلالِ .»

حَنَى حِمْدانُ رَأْسَهُ قائِلاً : « سَأَفْعَلُ ، يا مَوْلايَ ، في الحالِ .»

وَضَعَ حِمْدانُ الأَميرَةَ الصَّغيرَةَ في سَلَّةٍ مِنَ الخُوصِ ، وَأَسْرَعَ يُغادِرُ بِها المَمْلَكَةَ وَيَرْتَقي التِّلالَ البَعيدَةَ الشّاهِقَةَ الارْتِفاعِ ، حَتّى

بَلَغَ أَعْلاها بَعْدَ يَوْمَيْنِ مِنَ العَناءِ . ثُمَّ اسْتَلَّ الشِّرّيرُ سِكّيناً حادَّةً ، وَقالَ وَعَيْناهُ تَلْمَعانِ بِالشَّرِّ : « الآنَ أَقْتُلُ الأَميرَةَ الصَّغيرَةَ ، فَيُكافِئُني مَوْلايَ الوَزيرُ مُكافَأَةً .»

وَكانَ ثَمَّةَ صَيّادٌ عَجوزٌ يَعيشُ في كوخٍ أَعْلى التَّلِّ ، وَأَلْهَمَهُ اللّٰهُ أَنْ يُغادِرَ كوخَهُ لِيُنْقِذَ الأَميرَةَ المِسْكينَةَ . وَعِنْدَما اقْتَرَبَ الصَّيّادُ العَجوزُ ، وَشاهَدَ ما يَهُمُّ حِمْدانُ الشِّرّيرُ بِأَنْ يَفْعَلَهُ بِالأَميرَةِ المِسْكينَةِ ، أَمْسَكَ حَجَراً كَبيراً قَذَفَ بِهِ حِمْدانَ الشِّرّيرَ فَشَدَخَ رَأْسَهُ ، وَأَفْقَدَهُ وَعْيَهُ . وَبَعْدَ غَيْبوبَةٍ كافِيَةٍ لِنَجاةِ الأَميرَةِ الفاتِنَةِ ، أَفاقَ حِمْدانُ ثُمَّ وَلّى هارِباً وَهُوَ يَظُنُّ المُتَعَبِّدَ شَبَحاً أَو جِنِّيّاً .



وَخَشِيَ حِمْدانُ أنْ يُخْبِرَ الوزيرَ بِما حَدَثَ ، فَكَذَبَ عَلَيْهِ وَأَخْبَرَهُ أنَّهُ ذَبَحَ الأميرَةَ الصَّغيرَةَ فَوْقَ التِّلالِ ، فَسَعِدَ الوَزيرُ أَيَّما سَعادَةٍ ، وَظَنَّ أنَّهُ قَدْ دامَ لَهُ الحالُ .

* * *

أَمَّا الصَّيَّادُ العَجوزُ فَقَدْ راحَ يَرْعى الأميرَةَ الصَّغيرَةَ ، وَيُقَدِّمُ لَها الحَنانَ وَالطَّعامَ وَالرِّعايَةَ ، مِمّا تَسْتَسيغُهُ أعْوامُها القَليلَةُ ، فَشَبَّتِ الأميرَةُ في كَنَفِهِ ، وَقَدِ اعْتادَتِ العَيْشَ في البَراري ، وَاقْتِناصَ الثَّعالِبِ وَالذِّئابِ في شَجاعَةٍ .

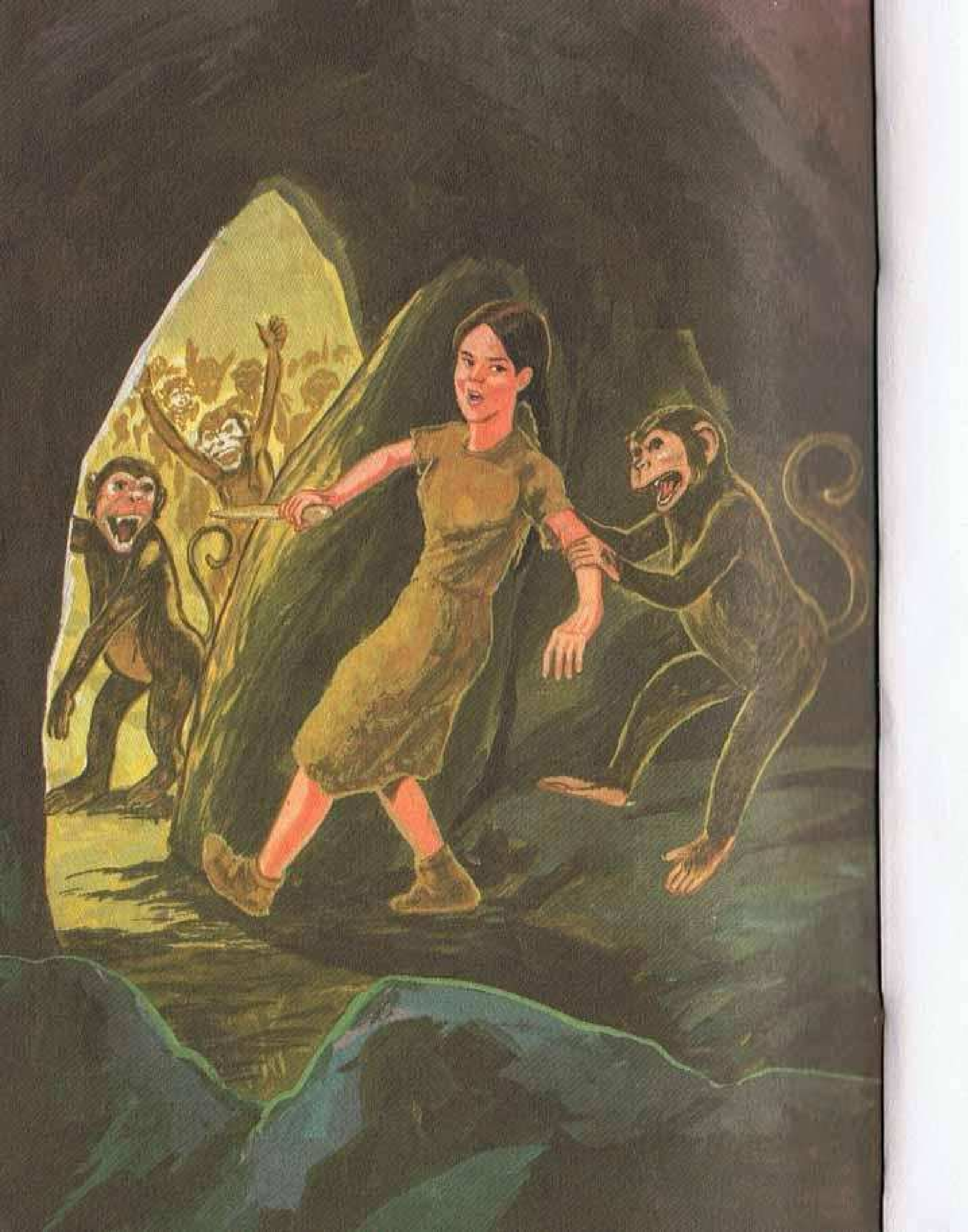
وَتَقَدَّمَتِ السِّنُّ بِالصَّيَّادِ العَجوزِ وَ وَهَنَ جَسَدُهُ ، فَباتَتِ الأميرَةُ تَأْتي لَهُ بِالطَّعامِ ، وَتَخْرُجُ لِلصَّيْدِ أَوِ القَنْصِ في شَجاعَةٍ ، حَتَّى صارَتْ كَأَمْهَرِ الصَّيَّادينَ وَأَشْجَعِ الفُرْسانِ . وَلَمْ يُخْبِرْها الصَّيَّادُ قَطُّ بِحَقيقَتِها أَوْ حَقيقَةِ مَوْلِدِها ، فَظَنَّتِ الأميرَةُ أنَّها ابْنَةُ ذَلِكَ الصَّيَّادِ العَجوزِ ، وَلَمْ تَدْرِ بِأَمْرِ والِدَيْها الحَقيقيَّيْنِ . وَكانَ يَشْعُرُ بِبُنُوَّتِها بِقَدْرِ ما تَشْعُرُ هِيَ بِأُمومَتِهِ وَأُبُوَّتِهِ .

وَبَعْدَ أنْ أَتَمَّتِ الأميرَةُ الفاتِنَةُ سِتَّةَ عَشَرَ رَبيعًا ، نَما جِسْمُها وَاسْتَطالَ ، وَظَهَرَتْ قُوَّتُها واضِحَةً ، وَقَدْ تَجَلَّى جَمالُها بَهِيًّا كَأَبْلَغِ ما يَكونُ ، فَقَدْ حَبَتْها طَبيعَةُ التِّلالِ المُشْرِقَةُ وَشَمْسُها السّاطِعَةُ

وَهَواؤُها النَّقِيُّ الصِّحَّةَ وَالقُوَّةَ ، وَأَشْياءَ أُخْرى يَفْتَقِدُها مَنْ يُنَشَّئونَ داخِلَ الجُدْرانِ في القُصورِ ، بِرَغْمِ رِدائِها الَّذي صَنَعَتْهُ مِنْ جُلودِ الحَيَواناتِ ، حَتَّى بَدَتْ كَأَنَّها فَتاةٌ وَحْشِيَّةٌ ، لِشِدَّةِ قُوَّتِها وَشَجاعَتِها وَبَأْسِها ؛ فَأَحَسَّ الصَّيَّادُ العَجوزُ بِسَعادَةٍ بالِغَةٍ لأنَّهُ أَتَمَّ مُهِمَّتَهُ في الحِفاظِ عَلى حَياةِ الأميرَةِ ، وَتَنْشِئَتِها إلى أنْ شَبَّتْ تَعْتَمِدُ عَلى نَفْسِها .

وَماتَ الصَّيَّادُ العَجوزُ ، وَأَحَسَّتِ الأميرَةُ الفاتِنَةُ بِالوَحْشَةِ فَقَرَّرَتْ أنْ تُغادِرَ التِّلالَ . وَمَكَثَتْ في تَجْوالِها أَيّامًا وَهِيَ تَسْعى في الأرْضِ ، فَتَجْتازُ العَوائِقَ وَالعَقَباتِ ، وَتَعْبُرُ الأنْهارَ وَالبُحَيْراتِ ، وَتَعيشُ عَلى ما تَطْرَحُهُ الأشْجارُ مِنْ ثِمارٍ حَوْلَها ، أَوْ ما تَقْتَنِصُهُ مِنْ أَرانِبَ بَرِّيَّةٍ . وَكانَتْ تُدافِعُ عَنْ نَفْسِها بِسِكّينٍ حادَّةٍ صَنَعَتْها مِنَ الأحْجارِ ، فَتَقْتُلُ كُلَّ ما يُهاجِمُها مِنَ الحَيَواناتِ المُتَوَحِّشَةِ ، الَّتي صارَتْ تَخْشاها وَتَبْتَعِدُ عَنْ طَريقِها . حَتَّى النّاسُ كانوا يَخْشَوْنَها وَيَتَجَنَّبونَها ، وَلَقَّبوها بِالأميرَةِ المُتَوَحِّشَةِ ، وَابْتَعَدوا عَنْ طَريقِها .

وَذاتَ يَوْمٍ كانَتِ الأميرَةُ تَعْبُرُ مَمَرًّا جَبَلِيًّا ضَيِّقًا ، فَخَرَجَتْ إلى مُهاجَمَتِها جَحافِلُ عَديدَةٌ مِنَ القُرودِ المُتَوَحِّشَةِ ، وَأَحاطَتْ بِها مِنْ كُلِّ جانِبٍ .



وَدافَعَتِ الأميرَةُ عَنْ نَفْسِها بِسِكِّينِها في بَسالَةٍ ، وَلكِنَّ القُرودَ كانَتْ كَثيرَةَ العَدَدِ فائِقَةَ الشَّراسَةِ ، وأَكْثَرَ تَوَحُّشاً ، ولِهذا لَمْ تَخْشَ سِكّينَ الأَميرَةِ وَلَمْ تَرْهَبْ شَجاعَتَها .

ودارَتِ المَعْرَكَةُ ، وَدافَعَتِ الأميرَةُ عَنْ نَفْسِها بِاسْتِماتَةٍ ، ولكِنْ وَضَحَ في النِّهايَةِ أَنَّ المَعْرَكَةَ لَنْ تَنْتَهِيَ إلى صالِحِها ، وَأَنَّها سَتَكونُ فَريسَةً سَهْلَةً لِلْقُرودِ المُتَوَحِّشَةِ . وَكانَ كُلُّ جانِبٍ مِنَ الفَريقَيْنِ يَتَمَتَّعُ بِما لا يَتَمَتَّعُ بِهِ الآخَرُ ؛ القُرودُ بِالكَثْرَةِ الغَلّابَةِ ، وَالأَميرَةُ بِالعَقْلِ الذَّكِيِّ . فَراحَتْ تَتَراجَعُ وَتَتَراجَعُ مُحاوِلَةً أَنْ تَشُقَّ لِنَفْسِها طَريقاً لِلْهَرَبِ وَلكِنْ بِلا فائِدَةٍ ، بَعْدَ أَنْ سَدَّتْ عَلَيْها القُرودُ كُلَّ مَنافِذِ الخَلاصِ .

وَفَجْأَةً انْزاحَتْ صَخْرَةٌ في الجَبَلِ ، وَظَهَرَ قِرْدٌ ضَخْمٌ ، كانَ يُشاهِدُ ما يَحْدُثُ مِنْ كَهْفٍ خَلْفَ صَخْرَةٍ بِالجَبَلِ ، فَأَسْرَعَ يَجْذِبُ الأَميرَةَ مِنْ ذِراعِها إلى داخِلِ الكَهْفِ ، ثُمَّ سَدَّهُ بِالصَّخْرَةِ الكَبيرَةِ مِنَ الدّاخِلِ ، قَبْلَ أَنْ تَنْدَفِعَ بَقِيَّةُ القُرودِ لافْتِراسِ الأَميرَةِ .

* * *

اِرْتَجَفَتِ الأَميرَةُ فَرَقاً مِنْ هَذا القِرْدِ الضَّخْمِ الَّذي أَنْقَذَها مِنْ بَيْنِ بَراثِنِ قَوْمِهِ ، وَظَنَّتْهُ يُريدُ افْتِراسَها وَحْدَهُ ، فَرَفَعَتْ سِكّينَها مُدافِعَةً

عَنْ نَفْسِها ، وَلَكِنَّ القِرْدَ الكَبيرَ نَظَرَ نَحْوَها بِوَداعَةٍ وَأَخَذَ يَدُقُّ عَلى صَدْرِهِ دَقّاتٍ خافِتَةً ، كَأَنَّهُ يُقَلِّدُ الإِنْسانَ في مِثْلِ ذَلِكَ المَوْقِفِ . كانَ يُريدُ أَنْ يُطَمْئِنَها ، وَلَوْ كانَ لَهُ لِسانٌ لَنَطَقَ بِهِ يُطَمْئِنُها وَيُخْبِرُها أَنَّهُ قِرْدُها الصَّغيرُ الَّذي كانَ يَعيشُ مَعَها في قَصْرِ والِدِها ، قَبْلَ اسْتيلاءِ الوَزيرِ سَعْفان عَلى عَرْشِ البِلادِ ، وَأَنَّهُ عادَ لِقَوْمِهِ لِيَعيشَ وَسْطَهُمْ . وَعِنْدَما شاهَدَ الأَميرَةَ وَهِيَ تُقاتِلُ بَني جِنْسِهِ أَسْرَعَ لِنَجْدَتِها . وَلَكِنَّ القِرْدَ المِسْكينَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُخْبِرَ الأَميرَةَ بِشَيْءٍ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ . وَحارَ كَيْفَ يُطَمْئِنُها ؛ فَأَسْرَعَ داخِلَ كَهْفِهِ وَاخْتَفى لَحْظَةً ، ثُمَّ عادَ وَقَدْ مَلأَ يَدَيْهِ فاكِهَةً مُتَنَوِّعَةً مِنْ خَوْخٍ وَعِنَبٍ وَتُفّاحٍ ، فَأَيْقَنَتِ الأَميرَةُ أَنَّهُ صَديقٌ لا عَدُوٌّ ، وَرَبَّتَتْ عَلى رَأْسِهِ شاكِرَةً . ثُمَّ تَناوَلَتْ ما قَدَّمَهُ لَها وَالْتَهَمَتْهُ بِنَهَمٍ شَديدٍ مِنْ فَرْطِ إِحْساسِها بِالجوعِ ، بَعْدَ القِتالِ الضّاري الَّذي خاضَتْهُ مَعَ القُرودِ المُتَوَحِّشَةِ .

وَقادَها القِرْدُ الكَبيرُ داخِلَ الجَبَلِ ، إِلى ناحِيَةٍ أُخْرى مِنْهُ ، تُشْرِفُ عَلى سَهْلٍ مُتَّسِعٍ لا يَحُدُّهُ البَصَرُ ، وَيَجْري خَلْفَهُ نَهْرٌ عَظيمٌ وَتُحيطُ بِهِ غاباتٌ شائِكَةٌ مُلْتَفَّةٌ ، اشْتَجَرَتْ أَغْصانُها فَأَظْلَمَتْ أَرْضُها ، وَلا يَبينُ لِلْقُرودِ المُتَوَحِّشَةِ أَيُّ أَثَرٍ بِهِ .

الْتَفَتَتِ الأَميرَةُ مُمْتَنَّةً إِلى القِرْدِ ، وَاتَّجَهَتْ نَحْوَ السَّهْلِ

المُتَّسِعِ ، فَوَجَدَتِ القِرْدَ الكَبيرَ يَتْبَعُها ، وَيَرْفُضُ أَنْ يُفارِقَها ، فَقالَتْ لَهُ باسِمَةً : « يَبْدو أَنَّكَ تُصِرُّ عَلى صُحْبَتي . لَقَدْ تَعَلَّمْتُ مُنْذُ قَليلٍ أَنَّ الكَثْرَةَ قُوَّةٌ ، وَالحَقُّ أَنَّ اثْنَيْنِ خَيْرٌ مِنْ واحِدٍ ، وَمِنَ الأَفْضَلِ أَنْ يَكونَ لِلإِنْسانِ رَفيقٌ وَصَديقٌ يُؤانِسُهُ وَيُسامِرُهُ ، حَتّى لَوْ كانَ قِرْداً مِنَ القُرودِ . وَسَوْفَ نَتَلازَمُ طَوالَ الطَّريقِ .»

سَعِدَ القِرْدُ بِكَلِماتِ الأَميرَةِ كَأَنَّهُ فَهِمَها ، وَراحَ يَقْفِزُ في مَرَحٍ وَسَعادَةٍ ، وَيَقومُ بِأَلْعابٍ بَهْلَوانِيَّةٍ ؛ فَضَحِكَتِ الأَميرَةُ بِنَشْوَةٍ ، وَقالَتْ لَهُ : « سَأَدْعوكَ القِرْدَ مَرْجان .»

وَسارَ الاثْنانِ إِلى قَلْبِ السَّهْلِ المُنْبَسِطِ ، وَكُلٌّ مِنْهُما يَشْعُرُ بِالسُّرورِ لِرُفْقَةِ الآخَرِ ، وَيَطْمَئِنُّ إِلى حِمايَتِهِ وَرِعايَتِهِ .

اسْتَمَرَّتِ الأَميرَةُ وَالقِرْدُ في سَيْرِهِما أَيّاماً وَلَيالِيَ عَديدَةً ، وَكانا يَقْتاتانِ مِمّا يَعْثُرانِ عَلَيْهِ مِنْ فاكِهَةٍ ، وَيَشْرَبانِ مِنْ أَيِّ عَيْنٍ أَوْ نَبْعٍ أَوْ غَديرٍ يُصادِفُهُما ، إِلى أَنْ بَلَغا الغابَةَ الواسِعَةَ لَيْلاً ، فَراحا يَجْتازانِ دُروبَها وَمَسالِكَها المُتَشَعِّبَةَ في حَذَرٍ .

وَفَجْأَةً تَناهى إِلَيْهِما صَوْتُ زَئيرٍ عالٍ ، يَبْدو عَلى صاحِبِهِ الأَلَمُ ، يَأْتي عَلى مَقْرَبَةٍ ، فَالْتَفَتَتِ الأَميرَةُ هامِسَةً إِلى القِرْدِ بِقَوْلِها : « انْتَظِرْ يا مَرْجانُ ، يَبْدو أَنَّ ثَمَّةَ وَحْشاً قَريباً مِنّا ؛ فَلْنَحاذِرْ !»

وَأَخَذَتْ تَدْنو في حَذَرٍ مِنْ مَصْدَرِ الزَّئيرِ ، فَتَكَشَّفَتْ لَها ، عَلى ضَوْءِ القَمَرِ المُتَسَلِّلِ مِنْ بَيْنِ الأَشْجارِ الكَثيفَةِ ، حُفْرَةٌ واسِعَةٌ عَميقَةٌ ، وَقَدْ سَقَطَ فيها نَمِرٌ أَرْقَطُ كانَ يُحاوِلُ الخُروجَ مِنْها عَبَثًا ، فَيَزْأَرُ في غَضَبٍ وَثَوْرَةٍ زَئيرًا مُفْزِعًا كَأَنَّهُ يَسْتَجيرُ . وَكانَ ثَمَّةَ ثَلاثَةٌ مِنْ صائِدي الوُحوشِ ، راحوا يَضْرِبونَ النَّمِرَ بِالعِصِيِّ الطَّويلَةِ ضَرَباتٍ مُوجِعَةً ، وَهُمْ بَعيدونَ آمِنونَ مِنْ مَخالِبِ وَأَنْيابِ النَّمِرِ ، وَراحوا يَسْتَعِدّونَ لِإِلْقاءِ شِباكِهِمْ عَلى النَّمِرِ المِسْكينِ المُتَوَجِّعِ .

صاحَتِ الأَميرَةُ بِغَضَبٍ ، ثُمَّ شَرَعَتْ تُهاجِمُ الصَّيّادينَ الثَّلاثَةَ ، وَمِنْ خَلْفِها القِرْدُ مَرْجان ، فَفَزِعَ الصَّيّادونَ لِلْهُجومِ المُباغِتِ ، وَأَسْرَعوا يَفِرّونَ يَبْتَغونَ السَّلامَةَ مِنَ الأَشْباحِ الَّتي هَبَطَتْ عَلَيْهِمْ فَجْأَةً وَأَحاطَتْ بِهِمْ ، وَلَمْ تَكُنْ تِلْكَ الأَشْباحُ في الحَقيقَةِ سِوى اثْنَيْنِ مُتَعاوِنَيْنِ عَلى الخَيْرِ ؛ أَحَدُهُما قِرْدٌ كَبيرٌ ، وَالآخَرُ تِلْكَ الأَميرَةُ الحَسْناءُ .

وَقَفَتِ الأَميرَةُ تُحَدِّقُ إِلى النَّمِرِ المِسْكينِ الواقِعِ في الشَّرَكِ ، وَنَظَرَتْ إِلى القِرْدِ مَرْجان تَسْأَلُهُ عَمّا يَفْعَلانِ لِنَجْدَةِ هٰذا النَّمِرِ الأَرْقَطِ ، فَأَسْرَعَ القِرْدُ إِلى جِذْعِ شَجَرَةٍ كَبيرٍ ، وَأَلْقى طَرَفَهُ داخِلَ الحُفْرَةِ ، لِيَكونَ سُلَّمًا يَصْعَدُ عَلَيْهِ النَّمِرُ إِلى خارِجِها .

وَفي الحالِ وَثَبَ النَّمِرُ فَوْقَ الجِذْعِ ، وَتَسَلَّقَهُ صاعِدًا إِلى خارِجِ

الحُفْرَةِ ، وزَأَرَ زئيراً عالياً ، فَهِمَتْ مِنْهُ الأميرةُ أنَّهُ يُعَبِّرُ عَنْ سَعادَتِهِ بِنَجاتِهِ ، ثُمَّ اقْتَرَبَ مِنْها وَراحَ يَلْعَقُ قَدَمَها كَأَنَّهُ يُقَدِّمُ لَها شُكْرَهُ وَامْتِنانَهُ لإنْقاذِها لَهُ ، فَرَبَّتَتِ الأميرةُ على رَأْسِهِ بِسُرُورٍ ، وَقالَتْ لِلْقِرْدِ مَرْجان : « الآنَ صارَ لَنا رَفيقٌ آخَرُ ، وَازْدادَ العَدَدُ قُوَّةً وَتأثيراً وَمَنْعَةً ، وَسَوْفَ نَدْعوهُ بِالنَّمِرِ « وَثّاب » . أَلَسْتَ تَرى هَذا الاسْمَ مُناسِباً ؟ »

وَشَرَعَتْ في السَّيْرِ وَبِرُفْقَتِها القِرْدُ مَرْجان وَالنَّمِرُ وَثّاب، لِيَجْتازوا بَقِيَّةَ الغابَةِ ، فَكانَتْ كُلُّ الحَيَواناتِ وَالوُحوشِ تَفِرُّ مِنْ أَمامِهِمْ ؛ خَوْفًا مِنَ النَّمِرِ الأَرْقَطِ الرَّهيبِ وَثّاب ، وَالقِرْدِ الكَبيرِ مَرْجان ، وَالأميرَةِ الأَشَدِّ شَجاعَةً مِنْهُما .

* * *

عَبَرَ الرِّفاقُ الثَّلاثَةُ حُدودَ الغابَةِ ، فانْكَشَفَ لَهُمْ عَلى البُعْدِ وادٍ خَصيبٌ ، تَقَعُ بِقَلْبِهِ مَدينَةٌ عَظيمَةٌ ذاتُ عَمائِرَ عالِيَةٍ وَأَبْراجٍ سامِقَةٍ وَمَساكِنَ فاخِرَةٍ ، وَتُحيطُ بِمَنازِلِها وَبُيوتِها الحَدائِقُ الغَنّاءُ الواسِعَةُ ، وَتَظْهَرُ عَلَيْها حُلَلُ النِّعْمَةِ وَمَعالِمُ الرَّخاءِ وَالرَّغَدِ ، وَيُحيطُها مِنْ كُلِّ الجَوانِبِ سورٌ عَظيمُ البُنْيانِ ، شاهِقُ الارْتِفاعِ ، سَميكُ الجِدارِ .

وَكانَتِ المَدينَةُ لا تَزالُ عَلى مَسيرَةِ نَهارٍ كامِلٍ ، فَقالَتِ الأميرَةُ لِرَفيقَيْها : « سَوْفَ نَسيرُ تُجاهَ هَذِهِ المَدينَةِ العَظيمَةِ وَنَدْخُلُها ، فَإِنَّني

أَشْعُرُ كَأَنَّ قَدَري يَقودُني نَحْوَها . »

وَقَضى الثَّلاثَةُ نَهاراً كامِلاً في سَيْرِهِمْ ، حَتّى باتَتْ أَبْوابُ المَدينَةِ عَلى مَسيرَةِ ساعَةٍ واحِدَةٍ . وَأَحَسَّتِ الأميرَةُ بِالتَّعَبِ لِطولِ ما سارَتْ ، فَقالَتْ لِرَفيقَيْها : « لِنَسْتَرِحْ قَليلاً ، وَنَحْصُلْ عَلى قِسْطٍ مِنَ النَّوْمِ قَبْلَ أَنْ نُواصِلَ سَيْرَنا نَحْوَ هَذِهِ المَدينَةِ العَظيمَةِ . »

وَتَمَدَّدَتْ أَسْفَلَ شَجَرَةٍ وارِفَةِ الظِّلالِ ، وَقَدْ وَقَفَ عَلى حِراسَتِها النَّمِرُ وَثّاب وَالقِرْدُ مَرْجان كَأَشْجَعِ ما يَكونُ الحُرّاسُ .

وَما كادَتْ تُشْرِقُ شَمْسُ الصَّباحِ حَتّى تَعالى في الهَواءِ صَوْتُ صُراخٍ حادٍّ ، فَنَهَضَتِ الأميرَةُ فَزِعَةً ، وَشاهَدَتْ عَلى البُعْدِ نَسْراً ذَهَبِيًّا يَتَأَلَّقُ ريشُهُ تَحْتَ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ الوَليدَةِ الخافِتَةِ ، وَقَدْ راحَ يُحَلِّقُ في وَهَنٍ عَلى غَيْرِ ارْتِفاعٍ ، وَهُوَ يَتَخَبَّطُ في الهَواءِ ، كَأَنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَسْقُطَ ، وَقَدِ انْغَرَزَ في ساقِهِ اليُمْنى سَهْمٌ حادٌّ ، عَلى حينَ راحَ صَيّادٌ مِنْ صَيّادي النُّسورِ يُلاحِقُهُ وَهُوَ يُصَوِّبُ سَهْماً مِنْ سِهامِهِ نَحْوَهُ .

هَتَفَتِ الأميرَةُ في النَّمِرِ : « هَيّا ، يا وَثّاب ، لِتُنْقِذَ هَذا النَّسْرَ الذَّهَبِيَّ . »

انْدَفَعَ النَّمِرُ كَالسَّهْمِ نَحْوَ الصَّيّادِ ، الَّذي أَوْشَكَ أَنْ يُسَدِّدَ سَهْماً

آخَرَ إلى النَّسْرِ الذَّهَبِيِّ الجَريحِ ، لِيُصيبَهُ في مَقْتَلٍ ، وَبِقَفْزَةٍ واحِدَةٍ
مِنَ النَّمِرِ كانَ فَوْقَ الصَّيّادِ ، الَّذى انْكَفَأَ على الأرْضِ مَذْعوراً ثُمَّ
شَرَعَ يَجْري في رُعْبٍ هائِلٍ ، تارِكاً قَوْسَهُ وَسِهامَهُ مُلْقاةً على
الأرْضِ ، فَأسْرَعَ القِرْدُ مَرْجانُ بِالْتِقاطِها .

وَسَقَطَ النَّسْرُ الذَّهَبِيُّ على الأرْضِ خائِرَ القُوى ، فَهَبَّتِ الأميرَةُ
لِنَجْدَتِهِ ، وَأدْماها مَشْهَدُ السَّهْمِ المَغْروزِ في ساقِهِ ، فانْتَزَعَتْهُ مِنْ
مَكانِهِ ، وَضَمَّدَتْ جُرْحَ النَّسْرِ وَأوْقَفَتْ نَزْفَهُ . وَما لَبِثَ النَّسْرُ
الذَّهَبِيُّ أنِ اسْتَعادَ قُوَّتَهُ بَعْدَ حينٍ ، فَحَلَّقَ فَوْقَ الأميرَةِ وَرَفيقَيْها
شاكِراً ، ثُمَّ انْطَلَقَ في الأُفُقِ وَغابَ عَنِ الأبْصارِ .

قالَتِ الأميرَةُ بِحُزْنٍ : « كُنْتُ أتَمَنّى لَوِ انْضَمَّ إلَيْنا هَذا النَّسْرُ
الذَّهَبِيُّ ، لِيَصيرَ رَفيقَنا الرّابِعَ . »

وَشَرَعَتْ تَسيرُ مَعَ رَفيقَيْها حَتّى وَصَلوا قَريباً مِنْ أبْوابِ المَدينَةِ
المَفْتوحَةِ ، فَهَمَسَتْ إلى رَفيقَيْها قائِلَةً : « فَلْتَخْتَبِئْ يا مَرْجانُ وَأنْتَ
يا وَثّابُ ؛ فَلا بُدَّ أنَّ مَرْآكُما سَيُفْزِعُ سُكّانَ المَدينَةِ ، وَقَدْ يَظُنّونَكُما
مِنَ الحَيَواناتِ المُتَوَحِّشَةِ أوْ يَحْسَبونَكُما مِمَّنْ يَفْتَرِسونَ البَشَرَ وَيُرَوِّعونَ
الآمِنينَ ؛ فَيَقْبِضونَ عَلَيْكُما أوْ يَقْتُلونَكُما ! »

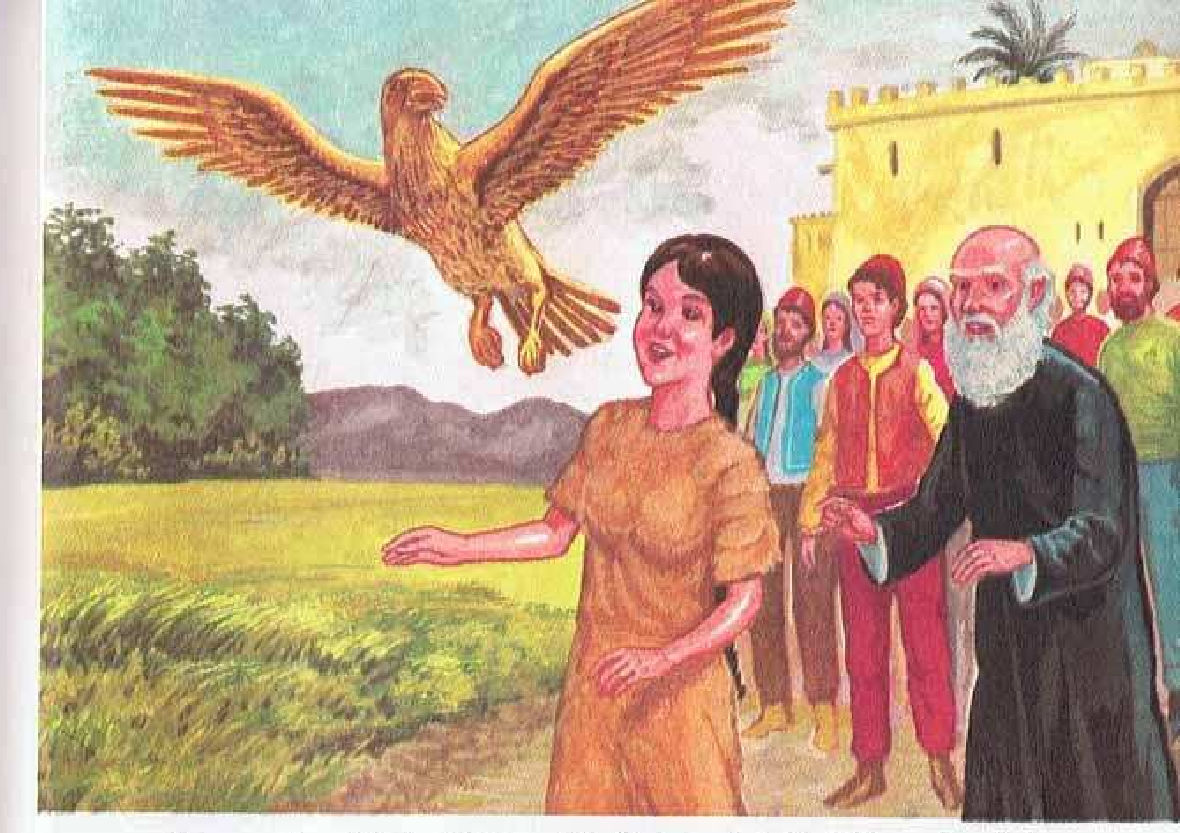
فَأسْرَعَ النَّمِرُ وَالقِرْدُ بِالاخْتِباءِ خَلْفَ بَعْضِ الآجامِ ، وَقَدْ أصَرّا

عَلى الصُّمودِ وَالثَّباتِ لِيَكونا قَريبَيْنِ مِنْ أميرَتِهِما ؛ لِنَجْدَتِها إذا
ما حاقَ بِها مَكْروهٌ .

اتَّجَهَتِ الأميرَةُ نَحْوَ أبْوابِ المَدينَةِ ، فَأدْهَشَها أنْ وَجَدَتْ سُكّانَها
جَميعَهُمْ قَدْ تَجَمَّعوا أمامَ الأسْوارِ ، وَهُمْ يَشْخَصونَ بِأبْصارِهِمْ نَحْوَ
السَّماءِ ، يَتَقَدَّمُهُمْ شَيْخٌ جَليلٌ طَويلُ اللِّحْيَةِ ، في رِداءٍ أسْوَدَ طَويلٍ ،
وَهُوَ يَشْخَصُ بِبَصَرِهِ ، مِثْلَ بَقِيَّةِ الواقِفينَ ، نَحْوَ السَّماءِ ؛ فَدَهِشَتِ
الأميرَةُ وَسَألَتْ أحَدَ الواقِفينَ : « ما هَذا الَّذي يَفْعَلُهُ سُكّانُ المَدينَةِ ؟
وَلِماذا يَشْخَصونَ بِأبْصارِهِمْ نَحْوَ السَّماءِ ؟ »

رَدَّ الرَّجُلُ : « اليَوْمَ يَتِمُّ اخْتِيارُ حاكِمِ مَدينَتِنا الجَديدِ لِخَمْسَةِ
أعْوامٍ قادِمَةٍ . وَكُلٌّ مِنْ هَؤُلاءِ الواقِفينَ وَأنا مَعَهُمْ نَنْتَظِرُ ؛ لَعَلَّ
أحَدَنا يَكونُ هُوَ الحاكِمَ القادِمَ لِمَدينَتِنا السَّعيدَةِ . »

عَجِبَتِ الأميرَةُ وَهِيَ وَسْطَ الواقِفينَ . وَفَجْأةً تَعالى صِياحٌ ، وَأشارَ
الواقِفونَ نَحْوَ السَّماءِ في إثارَةٍ وَلَهْفَةٍ ، فَتَطَلَّعَتِ الأميرَةُ حَيْثُ
أشاروا ، فَشاهَدَتْ نُقْطَةً ذَهَبِيَّةً راحَتْ تَقْتَرِبُ وَتَقْتَرِبُ وَهِيَ تَتَّضِحُ
وَتَبينُ مَعالِمُها ، وَمَيَّزَتِ الأميرَةُ مَلامِحَها تَماماً ، فَإذا بِها النَّسْرُ
الذَّهَبِيُّ الَّذي أنْقَذَتْهُ مِنْ سِهامِ الصَّيّادِ ، وَما لَبِثَ النَّسْرُ أنْ راحَ يَدْنو
وَيَدْنو ، فازْدادَ صِياحُ وَهُتافُ الواقِفينَ . وَعِنْدَما حَلَّقَ النَّسْرُ الذَّهَبِيُّ
فَوْقَ أسْوارِ المَدينَةِ خَيَّمَ عَلَيْها صَمْتٌ مُطْبِقٌ ، وَتَطَلَّعَ الواقِفونَ نَحْوَ



النَّسْرِ بِعُيونٍ اتَّسعَتْ عَمّا كانَتْ عَلَيْهِ ، وَظَلّوا يُحَمْلِقونَ شاخِصَةً أبْصارُهُمْ مِنْ فَرْطِ انْفِعالِهِمْ ، كَأنَّ النَّسْرَ سَيَأْتيهِمْ بِأَمْرٍ خارِقٍ.

دارَ النَّسْرُ دَوْرَتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا في الهَواءِ وَهُوَ يُحَدِّقُ في الواقِفينَ ، ثُمَّ شَرَعَ يَهْبِطُ بِسُرْعَةٍ ، وَعُيونُ الواقِفينَ تُتابِعُهُ في لَهْفَةٍ ، فاسْتَقَرَّ فَوْقَ كَتِفِ الأميرَةِ ، وَهُوَ يُطْلِقُ صَيْحاتٍ مُدَوِّيَةً تَعْبيرًا عَنْ الارْتِياحِ وَالابْتِهاجِ ، فَرَبَّتَتْ عَلَيْهِ الأميرَةُ ، وَهِيَ تَسْأَلُهُ بِسُرورٍ : « كَيْفَ حالُكَ أَيُّها النَّسْرُ الذَّهَبِيُّ ؟ لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنَّكَ غادَرْتَني إلى الأبَدِ .»

وَهُنا تَعالى الصِّياحُ مَرَّةً أُخْرى حَتّى كادَ يُصِمُّ الآذانَ ، وَاقْتَرَبَ الشَّيْخُ الجَليلُ ذو اللِّحْيَةِ البَيْضاءِ وَالرِّداءِ الأَسْوَدِ وَالوَجْهِ المُشْرِقِ ،

وَشَقَّ طَريقَهُ نَحْوَ الأميرَةِ حَتّى بَلَغَ مَكانَها ، فَوَضَعَ يَدَهُ على كَتِفِها ، وَقالَ بِوَجْهٍ مُتَهَلِّلٍ : « لَقَدْ صِرْتِ مُنْذُ الآنَ حاكِمَةَ البِلادِ ، يا ابْنَتي .»

دَهِشَتِ الأميرَةُ الفاتِنَةُ ، وَتَطَلَّعَتْ إلى الشَّيْخِ الجَليلِ مُتَسائِلَةً : « ماذا تَقولُ أَيُّها الشَّيْخُ الكَريمُ ؟»

رَدَّ الشَّيْخُ : « لَقَدِ اخْتارَكِ نَسْرُنا الذَّهَبِيُّ مَلِكَةً على البِلادِ ؛ فَكُلُّ خَمْسَةِ أَعْوامٍ يَعْتَلي عَرْشَ بِلادِنا أَحَدُ السُّكّانِ ، فَيَصيرُ مَلِكًا عَلَيْها ، وَيَكونُ اخْتِيارُ الحاكِمِ بِوَساطَةِ النَّسْرِ الذَّهَبِيِّ ، فَيَتَجَمَّعُ النّاسُ – كَما رَأَيْتِ – أَمامَ أَبْوابِ المَدينَةِ ، وَيُحَلِّقُ النَّسْرُ بَعيدًا عِدَّةَ أَيّامٍ في البَراري وَالسُّهولِ وَالغاباتِ ، ثُمَّ يَعودُ لِيَحُطَّ فَوْقَ كَتِفِ مَنْ يَخْتارُهُ ، لِيَكونَ الحاكِمَ الجَديدَ . وَلَقَدِ اخْتارَكِ النَّسْرُ الذَّهَبِيُّ بِبَصيرَتِهِ النّافِذَةِ وَإِلْهامِهِ الفِطْرِيِّ ، فَصِرْتِ مِنَ الآنَ فَصاعِدًا مَلِكَةَ البِلادِ .»

تَعَجَّبَتِ الأميرَةُ بِشِدَّةٍ وَهِيَ لا تَكادُ تُصَدِّقُ ما تَسْمَعُ ، عَلى حينَ نَظَرَ إِلَيْها النَّسْرُ الذَّهَبِيُّ بِامْتِنانٍ ، فَرَبَّتَتِ الأميرَةُ عَلى ريشِهِ الذَّهَبِيِّ قائِلَةً : « أَيُّها النَّسْرُ الكَريمُ ، ما أَرْوَعَ وَأَسْرَعَ ما رَدَدْتَ الجَميلَ !»

وَتَمَّ تَنْصيبُ الأميرَةِ مَلِكَةً عَلى البِلادِ ، في احْتِفالٍ مَهيبٍ ،

كَما تَمَّ تَسْليمُها مَقاليدَ الأمورِ ، فَراحَتْ تَحكُمُ وَتأمُرُ بِالقَوْلِ وَالحِكْمَةِ ، كَما لَوْ كانَتْ قَدِ انْتَقَلَتْ إلَيْها هَذِهِ المَكارِمُ عَنْ أَبَوَيْها وِراثَةً ، دونَ تَرْبِيَةٍ وَلا تَدْريبٍ وَلا إقْناعٍ ، ويُساعِدُها في ذَلِكَ مُسْتَشارُها الشَّيْخُ الحَكيمُ الَّذي كانَتْ مُهِمَّتُهُ مُساعَدَةَ كُلِّ حاكِمٍ جَديدٍ عَلى التَّعَرُّفِ بِشُئونِ البِلادِ ، في الفَتْرَةِ الأولى مِنْ حُكْمِهِ .

أمّا القِرْدُ مَرْجان والنَّمِرُ وَثّاب فَقَدْ أَرْسَلَتْ إلَيْهِما الأميرَةُ النَّسْرَ الذَّهَبِيَّ فاصْطَحَبَهُما إلى داخِلِ المَدينَةِ ، حَيْثُ أقاما في حَدائِقِ القَصْرِ المَلَكيِّ بِدونِ أنْ يَخْشاهُما إنْسانٌ . وَصارَتِ الأميرَةُ إذا ما جَلَسَتْ في مَوْكِبِها المُؤَلَّفِ مِنْ سِتِّ عَرَباتٍ ذَهَبِيَّةٍ ، يَجُرُّ كُلًّا مِنْها ثَمانِيَةُ خُيولٍ مُطَهَّمَةٍ ، أنْ تُجْلِسَ القِرْدَ وَالنَّمِرَ خَلْفَها ، وَيَحُطُّ النَّسْرُ الذَّهَبِيُّ فَوْقَ كَتِفِها .

وَذاتَ يَوْمٍ وَالأميرَةُ عائِدَةٌ مِنْ جَوْلَةٍ لَها لِتَفَقُّدِ أحْوالِ الرَّعِيَّةِ ، وَالشَّيْخُ الحَكيمُ بِصُحْبَتِها ؛ إذِ اشْتَبَكَ ثَوْبُها بِفَرْعِ شَجَرَةٍ فَتَمَزَّقَ الرِّداءُ عِنْدَ مَوْضِعِ الكَتِفِ مِنْها ، وانْكَشَفَتْ شامَةُ الأميرَةِ الحَمْراءُ . وَما إنْ رَآها الشَّيْخُ الحَكيمُ حَتّى ثارَتْ دَهْشَتُهُ وَتَعاظَمَتْ ، وَصارَ يَسْأَلُ نَفْسَهُ عَنْ تِلْكَ الشّامَةِ وَصاحِبَتِها ، وَأَخَذَ يَسْتَنْطِقُ ذاكِرَتَهُ بِما خَطَّ فيها ، وَأَخَذَ يَرْبِطُ بَيْنَ قِصَّةِ تِلْكَ الشّامَةِ وَالأميرَةِ الفاتِنَةِ . ثُمَّ سَأَلَ الأميرَةَ عَنْ قِصَّةِ حَياتِها ، فَأَخْبَرَتْهُ بِنُشوئِها فَوْقَ رَوابي مَمْلَكَةِ

التِّلالِ السَّبْعَةِ ، كَما أَخْبَرَتْهُ عَنْ والِدِها الصَّيّادِ العَجوزِ .

هَتَفَ الشَّيْخُ الجَليلُ غَيْرَ مُصَدِّقٍ : « يَبْدو أَنَّني عَرَفْتُكِ ، أَقْصِدُ أَنَّني عَرَفْتُكِ ، أَنْتِ الأميرَةُ الفاتِنَةُ ابْنَةُ المَلِكِ زيدان وَالمَلِكَةِ أَسْمَهان . »

وَشَرَعَ يَقُصُّ عَلى الأميرَةِ ما مَرَّ بِوالِدَيْها مِنْ أَحْداثٍ ، عِنْدَما كانَتْ طِفْلَةً صَغيرَةً لا تَعي شَيْئًا . وَكَيْفَ قامَ الوَزيرُ سَعْفان بِالتَّآمُرِ عَلى والِدَيْها وَبِإلْقائِهِما في جُبٍّ ، لا يَصِلُهُ إنْسانٌ ، عَلى التِّلالِ ، وَادَّعى مَوْتَهُما لِيَغْتَصِبَ عَرْشَ البِلادِ . وَكَيْفَ قامَ بِإرْسالِ الأميرَةِ الصَّغيرَةِ إلى التِّلالِ لِيَذْبَحَها أَحَدُ أَعْوانِهِ الأَشْرارِ ، وَكَيْفَ أَنْقَذَها الصَّيّادُ العَجوزُ وَكَفَلَها ، إلى أَنْ ماتَ بِدونِ أَنْ يُخْبِرَها بِحَقيقَةِ أَمْرِها .

دَهِشَتِ الأميرَةُ وَتَعاظَمَتْ دَهْشَتُها وَسَأَلَتْ تَسْتَفْسِرُ الشَّيْخَ الحَكيمَ : « وَلَكِنْ كَيْفَ عَلِمْتَ أَنْتَ بِكُلِّ هَذِهِ الأُمورِ ؟ »

اِزْدادَ نَبْشُ الشَّيْخِ في ذاكِرَتِهِ لِتَذَكُّرِ هَذا اليَوْمِ المَوْعودِ مِنْ أَيّامِهِ الطِّوالِ ؛ فَسالَتْ دُموعُهُ .

كَفْكَفَ الشَّيْخُ دُموعَهُ وَهُوَ يَقولُ : « لَقَدْ كُنْتُ أَعْمَلُ مُسْتَشارًا في بَلاطِ والِدِكِ المَلِكِ زيدان ، وَبَعْدَ أَنْ جَرى ما جَرى ،

وَاسْتَوْلى الوَزيرُ سعْفان عَلى الحُكْم ، عَزَمَ عَلى قَتْلِ كُلِّ رِجال والِدِكَ المَلِكِ ومُساعِديهِ ، فَهَرَبْتُ إِلى هَذِهِ البِلادِ ، ثُمَّ اخْتارَني النَّاسُ لأكونَ مُرْشِدَ مُلوكِهِمْ في بِدايَةِ حُكْمِهِم ؛ لِسَدادِ رَأْيي وَطولِ خِبْرَتي وَحُسْنِ صُحْبَتي لِوالِدَيْكِ ، وَإِفادَتي وَتَعَلُّمي مِنْهُما الكَثيرَ مِنْ هَذِهِ الأُمورِ .»

تَأَلَّقَتْ عَيْنا الأَميرَةِ ، وَقالَتْ : « إِذاً فَأَنا ابْنَةُ المَلِكِ زيدان ، الَّذي اغْتَصَبَ الوَزيرُ المُجْرِمُ سَعْفان عَرْشَهُ ، وَسَجَنَهُ مَعَ والِدَتي المَلِكَةِ ، وَأَنا هُنا لا أَدْري عَنْ مَصيرِهِما شَيْئاً .»

وَهَبَّتْ واقِفَةً وَهِيَ تَفورُ بِغَضَبٍ عارِمٍ قائِلَةً : « سَوْفَ أَذْهَبُ لإِنْقاذِ والِدَيَّ في الحالِ .»

اعْتَرَضَ الشَّيْخُ الحَكيمُ قائِلاً : « وَلَكِنَّكِ ضَعيفَةٌ وَحْدَكِ يا ابْنَتي ، وَلَيْسَ لَكِ مِنْ جَيْشٍ يُواجِهُ جُيوشَ الوَزيرِ سَعْفان .»

قالَتِ الأَميرَةُ بِإِصْرارٍ : « سَوْفَ أُحارِبُهُ مَهْما كانَتْ قُوَّتُهُ ، فَإِنَّ الحَقَّ لا تَغْلِبُهُ أَيُّ قُوَّةٍ مَهْما تَعاظَمَتْ ، فَإِمَّا أَنْ أُعيدَ والِدي إِلى عَرْشِ مَمْلَكَةِ التِّلالِ السَّبْعَةِ ، وَأُعاقِبَ الوَزيرَ الشِّرّيرَ ، وَإِمَّا أَنْ أَموتَ شَهيدَةً في طَلَبِ الواجِبِ . وَلَنْ أَحْتاجَ إِلى جَيْشٍ جَرّارٍ أَوْ قُوَّةٍ وَعَتادٍ ، يَكْفيني أَصْدِقائي الثَّلاثَةُ : القِرْدُ مَرْجان وَالنَّمِرُ وَثّاب وَالنَّسْرُ

الذَّهَبِيُّ ، فَضْلاً عَنِ الصَّديقِ الَّذي لا يَغيبُ وَلا يُرى .»

ظَنَّ الشَّيْخُ أَنَّهُ قَدْ مَسَّها شَيْءٌ مِنْ هَوْلِ المُفاجَأَةِ ، فَسَأَلَها : « مَنْ ذَلِكَ الصَّديقُ الَّذي لا يَغيبُ وَلا يُرى ؟»

قالَتْ : « هُوَ التَّجارِبُ ، يا سَيِّدي الشَّيْخَ الجَليلَ . التَّجارِبُ وَالخِبْراتُ ، وَدُروسُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ ، وَالتِّلالِ وَالقِفارِ ، وَالطُّيورِ وَالوُحوشِ ، وَما لا يُحْصى مِنَ الصَّفَحاتِ في كِتابِ الكَوْنِ العَجيبِ .»

نَدِيَتْ لِحْيَةُ الشَّيْخِ الجَليلِ بِدُموعِهِ الغِزارِ ، وَهُوَ يَقولُ : « بارَكَ اللّهُ فيكِ يا ابْنَتي . إِنَّ المَلِكَ زيدان لَنْ يَنْدَمَ أَبداً عَلى أَنَّ اللّهَ وَهَبَ لَهُ ابْنَةً ، هِيَ مِثالُ الشَّجاعَةِ وَالقُوَّةِ وَالفِداءِ . وَسَوْفَ أَصْحَبُكِ في رِحْلَتِكِ إِلى مَمْلَكَةِ التِّلالِ السَّبْعَةِ ؛ فَلا يُمْكِنُني أَنْ أَتَأَخَّرَ عَنْ تَقْديمِ يَدِ العَوْنِ لِلْمَلِكِ زيدان .

« وَلَكِنْ يَجِبُ أَوَّلاً وَقَبْلَ رَحيلِنا أَنْ نَخْتارَ مَلِكاً آخَرَ يَحِلُّ مَحَلَّكَ عَلى البِلادِ ، وَسَوْفَ أَخْتارُهُ بِنَفْسي هَذِهِ المَرَّةَ .»

وَانْتَقى الشَّيْخُ الحَكيمُ أَحَدَ أَخْلَصِ أَعْوانِهِ ، وَأَصْوَبِهِمْ رَأْياً ، وَعَيَّنَهُ حاكِماً عَلى البِلادِ ، وَأَعْلَنَ أَنَّهُ وَالأَميرَةَ الفاتِنَةَ وَرِفاقَها الثَّلاثَةَ مِنَ الطَّيْرِ وَالحَيَوانِ ، ذاهِبونَ إِلى مَهَمَّةٍ عاجِلَةٍ لا تَحْتَمِلُ تَأْجيلاً ؛

فَخَرَجَ الشَّعْبُ كُلُّهُ لِوَداعِهِمْ وَتَحِيَّتِهِمْ .

سارَ الشَّيْخُ الحَكيمُ وَالأَميرَةُ الَّتي ارْتَدَتْ مَلابِسَ القِتالِ ، يَتْبَعُهُما القِرْدُ مَرْجان وَالنَّمِرُ وَثّاب ، وَطارَ النَّسْرُ الذَّهَبِيُّ فَوْقَهُمْ ، في اتِّجاهِ مَدينَةِ التِّلالِ السَّبْعَةِ .

انْقَضَتْ أَيّامٌ طِوالٌ قَبْلَ أَنْ يَصِلوا جَميعًا إِلى مَشارِفِ مَدينَةِ التِّلالِ السَّبْعَةِ . وَقالَتِ الأَميرَةُ لِلشَّيْخِ الحَكيمِ : « اِذْهَبْ إِلى الوَزيرِ سَعْفان فَأَخْبِرْهُ أَنَّ الأَميرَةَ الفاتِنَةَ ابْنَةَ المَلِكِ زيدان وَالمَلِكَةِ أَسْمَهان ، قَدْ جاءَتْ تُطالِبُ بِعَرْشِ والِدِها وَالإِفْراجِ عَنْهُما ، وَتَطْلُبُ مُنازَلَتَهُ ، فَإِنِ انْتَصَرَتْ عَلَيْهِ كانَ لَها ما تَسْتَحِقُّ ، وَإِنْ هَزَمَها كانَ لَهُ أَنْ يَظَلَّ حاكِمًا عَلى البِلادِ . »

قالَ الشَّيْخُ وَقَدْ عاوَدَهُ خَوْفُهُ عَلى الأَميرَةِ : « أَخْشى عَلَيْكِ ، يا ابْنَتي ؛ فَالوَزيرُ ماكِرٌ خَبيثٌ واسِعُ الحيلَةِ شَديدُ القُوَّةِ وَالبَأْسِ . كُلُّ ما فيهِ يُنْبِئُ بِأَنَّهُ لَنْ يَتَحَوَّلَ عَنْ طَبيعَتِهِ ، وَلَنْ يَرْجِعَ عَنْ شَرٍّ واحِدٍ مِنْ شُرورِهِ . »

قالَتِ الأَميرَةُ بِإِصْرارٍ : « نَعَمْ ، نَعَمْ ؛ فَهكَذا الأَشْرارُ ، وَلكِنِ اذْهَبْ وَنَفِّذْ ما أَمَرْتُكَ بِهِ أَيُّها الشَّيْخُ الحَكيمُ ، فَلا راحَةَ لي وَلا هَناءَةَ بَعْدَ اليَوْمِ ، إِلّا إِذا أَنْقَذْتُ والِدَيَّ وَأَعَدْتُ تَنْصيبَهُما عَلى

عَرْشِ البِلادِ ، وَعاقَبْتُ الوَزيرَ الغادِرَ عَلى ما اقْتَرَفَتْهُ يَداهُ مِنْ آثامٍ ! »

أَطاعَها الشَّيْخُ الحَكيمُ ، وَاتَّجَهَ صَوْبَ قَصْرِ الوَزيرِ ، وَهُوَ لا يَخْشى عَلى حَياتِهِ قَدْرَ خَشْيَتِهِ عَلى حَياةِ الأَميرَةِ .

فَلَمّا مَثُلَ بَيْنَ يَدَيِ الوَزيرِ أَخْبَرَهُ بِتَحَدّي الأَميرَةِ الفاتِنَةِ ابْنَةِ المَلِكِ زيدان لَهُ وَطَلَبِ نِزالِهِ خارِجَ أَسْوارِ المَدينَةِ .

ذَهِلَ الوَزيرُ حينَ سَمِعَ ذَلِكَ القَوْلَ ، وَقالَ غَيْرَ مُصَدِّقٍ : « أَلا تَزالُ الأَميرَةُ الفاتِنَةُ حَيَّةً ؟ وَكَيْفَ ذَلِكَ وَقَدْ أَخْبَرَني مُساعِدي حَمْدان أَنَّهُ قَتَلَها وَهِيَ طِفْلَةٌ ؟ »

وَأَمَرَ – وَهُوَ يُرْغي وَيُزْبِدُ – بِاسْتِدْعاءِ حَمْدان ، فَلَمّا عَلِمَ حَمْدان بِالأَمْرِ تَوَجَّسَ خيفَةً . وَلكِنَّهُ بَعْدَ أَنْ أَخْبَرَهُ بِأَمْرِ نَجاةِ الأَميرَةِ مِنَ المَوْتِ وَكَذِبِهِ عَلَيْهِ في هذا الشَّأْنِ ارْتاعَ وَجَثا عَلى رُكْبَتَيْهِ باكِيًا طالِبًا العَفْوَ ، وَلكِنَّ الوَزيرَ أَمَرَ بِقَطْعِ رَقَبَةِ الرَّجُلِ ، فَقُطِعَتْ في الحالِ . ثُمَّ أَمَرَ بِالقَبْضِ عَلى الشَّيْخِ الحَكيمِ وَسَجْنِهِ في الجُبِّ مَعَ المَلِكِ زيدان وَالمَلِكَةِ أَسْمَهان .

وَبَعْدَ أَنْ تَمَّ ذَلِكَ ، اجْتَمَعَ الوَزيرُ مَعَ قادَةِ جَيْشِهِ لِيَتَشاوَرَ مَعَهُمْ في أَمْرِ القَبْضِ عَلى الأَميرَةِ الفاتِنَةِ ، وَأَخْبَرَهُمْ كَيْفَ أَنَّها جَرُؤَتْ عَلى طَلَبِ مُنازَلَتِهِ ؛ فَسَخِروا جَميعًا مِنْ أَمْرِها ، وَعَرَضَ أَكْثَرُ مِنْ

واحِدٍ مِنْهُمْ أنْ يَتَقَدَّمَ لِمُنازَلَتِها ، فَيَقْتُلَها في الحالِ ، وَلكِنَّ الوَزيرَ الَّذي كانَ لا يَقِلُّ بَراعَةً عَنْ فُرْسانِهِ قالَ : « سَوْفَ أنازِلُها بِنَفْسي ، وَيُسْعِدُني أنْ أقْبِضَ عَلَيْها لأُلْقِيَها في الجُبِّ هِيَ الأخْرى ، فَلا تُغادِرَهُ حَيَّةً أبَداً . »

وَأمَرَ بِأنْ يَخْرُجَ جَيْشُهُ مَعَهُ بِكامِلِ عُدَّتِهِ وَعَتادِهِ ؛ فَخَرَجَ الجَيْشُ في مَوْكِبٍ مَهيبٍ يَتَقَدَّمُهُ الوَزيرُ وَقُوّادُهُ ، صَوْبَ المَكانِ الَّذي عَسْكَرَتْ فيهِ الأميرَةُ خارِجَ الأسْوارِ .

* * *

لَمْ تَفْزَعِ الأميرَةُ وَهِيَ تُشاهِدُ الجَيْشَ العَرَمْرَمَ يَتَقَدَّمُ نَحْوَها . وَكانَتْ قَدِ احْتاطَتْ لِلأمْرِ ، فَطَلَبَتْ مِنَ القِرْدِ مَرْجانَ والنَّمِرِ وَثّاب وَالنَّسْرِ الذَّهَبِيِّ الاخْتِباءَ بَعيداً وَعَدَمَ التَّقَدُّمِ لِمُساعَدَتِها إلّا في حالَةِ تَعَرُّضِها لِلْغَدْرِ مِنَ الوَزيرِ وَفُرْسانِهِ .

وَأشارَ الوَزيرُ لِجَيْشِهِ بِالوُقوفِ ، ثُمَّ تَقَدَّمَ مِنَ الأميرَةِ فَوْقَ جَوادِهِ ساخِراً ، وَأشارَ لَها بِطَرَفِ سَيْفِهِ قائِلاً : « أَجِئْتِ تَتَحَدَّيْنَني أيَّتُها الأميرَةُ وَتَتَحَدَّيْنَ جَيْشي ؟ هٰذا أمْرٌ عَجيبٌ لَمْ أسْمَعْ بِهِ قَبْلاً ! فَتاةٌ وَحيدَةٌ تَتَحَدّى جَيْشَ مَمْلَكَةٍ بِأكْمَلِهِ ! »

قالَتِ الأميرَةُ بِثَباتٍ : « لَقَدْ جِئْتُ لِنِزالِكَ أيُّها الوَزيرُ المُجْرِمُ !

وَإنْ كانَ لَكَ مِنَ الشَّجاعَةِ قَدْرُ ما لَكَ مِنَ الخُبْثِ وَالدَّناءَةِ فَتَقَدَّمْ لِمُنازَلَتي . »

اشْتَدَّ غَضَبُ الوَزيرِ لِسَماعِهِ كَلِماتِ الأميرَةِ ، وَتَقَدَّمَ فَوْقَ جَوادِهِ وَالشَّرَرُ يَتَطايَرُ مِنْ عَيْنَيْهِ وَهُوَ يَقولُ : « حَسَنٌ أيَّتُها الأميرَةُ ، كُنْتُ أعْتَزِمُ أسْرَكِ وَسَجْنَكِ ، وَلكِنَّني الآنَ سَأجْعَلُكِ تَدْفَعينَ حَياتَكِ ثَمَناً لِما تَفَوَّهْتِ بِهِ مِنْ كَلِماتٍ . »

وَانْدَفَعَ نَحْوَها بِكُلِّ قُوَّتِهِ ، مُشْهِراً سَيْفَهُ في وَجْهِها ، فَاسْتَلَّتِ الأميرَةُ سَيْفَها وَشَرَعَتْ تُلاقيهِ ، وَتَقابَلَ النَّصْلانِ في صَوْتٍ داوٍ . وَبِحَرَكَةٍ ماكِرَةٍ مَدَّ الوَزيرُ قَدَمَهُ نَحْوَ كَتِفِ الأميرَةِ وَكانَ بِها نَصْلُ سِكّينٍ خَفِيٌّ ، فَجَرَحَتِ السِّكّينُ كَتِفَ الأميرَةِ وَسالَ دَمُها .

قَهْقَهَ الوَزيرُ بِصَوْتٍ عالٍ ، وَاسْتَدارَ لِيُهاجِمَ الأميرَةَ الجَريحَةَ مَرَّةً أخْرى ، وَقابَلَتْهُ الأميرَةُ هٰذِهِ المَرَّةَ بِساعِدٍ قَوِيٍّ ، وَبَعْدَ أنْ صَدَّتْ ضَرْبَتَهُ بِيُمْناها ، جَذَبَتْهُ بِيُسْراها مِنْ فَوْقِ جَوادِهِ ، فَوَقَعَ عَلى الأرْضِ وَسَقَطَ سَيْفُهُ بَعيداً .

لاحَ الرُّعْبُ في عَيْنَي الوَزيرِ ، وَزَحَفَ عَلى رُكْبَتَيْهِ هارِباً ، وَلكِنَّ الأميرَةَ لَحِقَتْ بِهِ ، وَقَبْلَ أنْ تُسَدِّدَ ضَرْبَةً إلى صَدْرِهِ بِسَيْفِها ، أشارَ الوَزيرُ إلى قُوّادِ جَيْشِهِ مِنَ الفُرْسانِ ، فَانْدَفَعوا نَحْوَ

الأميرة فَوْقَ جِيادِهِمْ رافِعينَ حِرابَهُمْ . وَكانوا كَثْرَةً كاثِرَةً ، وَلِلأَميرَةِ خِبْرَةٌ في شَأْنِ القِلَّةِ لا الكَثْرَةِ ، وَرَأَتْ مِنْ أَمْرِها الكَثيرَ وأَضافَتْهُ إلى دُروسِها القَيِّمَةِ .

وَلكِنَّ النَّجْدَةَ جاءَتْ عَلى غَيْرِ انْتِظارٍ ، فَقَدِ انْطَلَقَ مَرْجان وَ وَثّاب والنَّسْرُ الذَّهَبِيُّ نَحْوَ الفُرْسانِ المُهاجِمينَ ، فَقَبَضَ مَرْجان عَلى فارِسَيْنِ بِيَدَيْهِ وَأَلْقاهُما مِنْ فَوْقِ جَوادَيْهِما فَدَقَّ عُنُقاهُما ، وَأَسْرَعَ يَقْفِزُ نَحْوَ غَيْرِهِما مِنَ المُهاجِمينَ وَيَفْعَلُ بِهِمْ نَفْسَ الشَّيْءِ . وَانْقَضَّ النَّسْرُ عَلى رُءوسِ المُهاجِمينَ وَخُيولِهِمْ فَفَرّوا في كُلِّ اتِّجاهٍ وَالنَّسْرُ الذَّهَبِيُّ يُطارِدُهُمْ وَيُمَزِّقُ كُلَّ مَنْ تَقَعُ مَخالِبُهُ عَلَيْهِ .

وَتَقَهْقَرَ بَقِيَّةُ الجَيْشِ خائِفاً مَذْعوراً أَمامَ الهُجومِ المُباغِتِ غَيْرِ المُتَوَقَّعِ ، وَاسْتَسْلَموا لِلأَميرَةِ الفاتِنَةِ ابْنَةِ المَلِكِ زيدان . وانْقَضَّتِ الأَميرَةُ عَلى الوَزيرِ الغادِرِ وَقَبَضَتْ عَلَيْهِ ، وَسَيْفُها فَوْقَ رَقَبَتِهِ ، وَأَمَرَتْهُ بِأَنْ يُرْشِدَها إلى الجُبِّ الَّذي سَجَنَ والِدَيْها وَالشَّيْخَ الحَكيمَ فيهِ ؛ فَدَلَّها الوَزيرُ إلى الجُبِّ بِأَعْلى التِّلالِ . وَكانَ جُبّاً عَميقاً قَدْ قُدَّ في الصَّخْرِ ، وَلا يُمْكِنُ لإِنْسانٍ أَنْ يَدْخُلَهُ وَيَتَمَكَّنَ مِنْ مُغادَرَتِهِ .

وَلكِنَّ الأَميرَةَ لَمْ تَيْأَسْ . وَأَشارَتْ إلى القِرْدِ مَرْجان ، وَكانَ ماهِراً في تَسَلُّقِ أَوْعَرِ الصُّخورِ وَأَعْلاها ، بِطَريقَةٍ لا تَجْعَلُكَ تَظُنُّ أَنَّهُ تَعَلَّمَها ، وَإِنَّما فُطِرَ عَلَيْها ، وَقامَ فيها قِيامَ النَّسْرِ بِالطَّيَرانِ وَالحيتانِ

بِالسِّباحَةِ . فَشَرَعَ القِرْدُ في هُبوطِ الجُبِّ في الحالِ ، وَلَمْ تَكَدْ تَمْضي دَقائِقُ حَتّى ظَهَرَ وَهُوَ يَحْمِلُ المَلِكَ زيدان فَوْقَ كَتِفَيْهِ ، وَقَدِ اسْتَطالَتْ لِحْيَتُهُ وَتَغَيَّرَ شَعْرُهُ وَجَلَّلَهُما الشَّيْبُ ، لِقَسْوَةِ ما عاناهُ في الجُبِّ المُظْلِمِ السَّحيقِ ، فارْتَمَتِ الأَميرَةُ بَيْنَ ذِراعَيْ والِدِها باكِيَةً مُنْتَحِبَةً . وَلَمْ يُصَدِّقِ المَلِكُ زيدان ما تُشاهِدُهُ عَيْناهُ ، مِنْ إِنْقاذِ ابْنَتِهِ لَهُ عَلى تِلْكَ الصّورَةِ .

وَعاوَدَ القِرْدُ مَرْجان هُبوطَهُ لِيَعودَ بِالمَلِكَةِ أَسْمَهان ، فَإِذا بِها في أَحْضانِ ابْنَتِها الأَميرَةِ ، فَبَكَتِ الأَميرَةُ عَلى كَتِفِ أُمِّها ، وَحَمِدَتِ اللهَ عَلى نَجاتِها هِيَ وَأَبيها . ثُمَّ أَخْرَجَ القِرْدُ مَرْجان الشَّيْخَ الحَكيمَ آخِرَ الأَمْرِ .

وَانْتَهَزَ الوَزيرُ فُرْصَةَ انْشِغالِ الأَميرَةِ بِنَجاةِ والِدَيْها مَعَ الشَّيْخِ الحَكيمِ ، فاسْتَلَّ خِنْجَراً مِنْ طَيّاتِ مَلابِسِهِ وَهَجَمَ عَلى الأَميرَةِ مِنَ الخَلْفِ ، وَلكِنَّ النَّمِرَ وَثّاباً كانَ أَسْرَعَ مِنْهُ ، فَقَفَزَ عَلَيْهِ وَأَنْشَبَ مَخالِبَهُ في ذِراعَيْهِ ، فَسَقَطَ الخِنْجَرُ مِنْ يَدِ الوَزيرِ ، وَنَهَضَ وَهُوَ يَجْري بِأَقْصى سُرْعَتِهِ ، وَهُوَ لا يَرى ما أَمامَهُ ، وَالنَّمِرُ يُطارِدُهُ ، فَزَلَّتْ قَدَمُهُ وَسَقَطَ داخِلَ الجُبِّ العَميقِ ، وَماتَ لِساعَتِهِ .

وَعادَ المَلِكُ زيدان وَزَوْجَتُهُ المَلِكَةُ أَسْمَهان وَالأَميرَةُ الفاتِنَةُ وَالشَّيْخُ الحَكيمُ ، وَمَعَهُمُ القِرْدُ مَرْجان وَالنَّمِرُ وَثّاب وَالنَّسْرُ الذَّهَبِيُّ .

وَاسْتَقْبَلَهُمْ سُكّانُ المَمْلَكَةِ بِفَرْحَةٍ عارِمَةٍ لِنَجاتِهِمْ ، وَخَلاصِ المَمْلَكَةِ مِنَ الوَزيرِ الشِّرّيرِ سَعْفان . وَأُقيمَتِ الأَفْراحُ احْتِفالاً بِنَجاةِ المَلِكِ وَالمَلِكَةِ أَرْبَعينَ يَوْماً . وَعادَ المَلِكُ زيدان مَلِكاً عَلى البِلادِ بِفَضْلِ شَجاعَةِ ابْنَتِهِ الأَميرَةِ الفاتِنَةِ .

وَبَعْدَ الأَرْبَعينَ يَوْماً ، اسْتَدْعى المَلِكُ ابْنَتَهُ الأَميرَةَ ، وَقالَ لَها : « لَقَدْ وَهَنَتْ قُوايَ وَاعْتَلَّتْ صِحَّتي ، يا ابْنَتي ، وَلَمْ تَعُدْ لي قُدْرَةٌ عَلى حُكْمِ البِلادِ . وَإِنْ كانَ اللّهُ لَمْ يَرْزُقْني وَلَداً يَرِثُ مُلْكي ، فَقَدْ رَزَقَني بِكِ لِتَكوني آيَةً مِنْ آياتِ الخالِقِ الرَّحيمِ العادِلِ ، وَإِنَّكِ لا تَقِلّينَ شَأْناً عَنْ أَفْضَلِ الفُرْسانِ وَأَحْكَمِ المُلوكِ ، وَلِذا فَقَدْ أَمَرْتُ بِتَغْييرِ قَوانينِ البِلادِ لِتَسْمَحَ لَكِ بِالجُلوسِ عَلى العَرْشِ ، وَمُنْذُ اللَّحْظَةِ فَأَنْتِ مَلِكَةُ مَمْلَكَةِ التِّلالِ السَّبْعَةِ .»

سَعِدَتِ الأَميرَةُ بِما اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ عَزْمُ والِدِها . وَفي الحالِ أُجْرِيَتْ مَراسِمُ تَنْصيبِها مَلِكَةً عَلى البِلادِ . وَتَزَوَّجَتْ الأَميرَةُ فارِساً وَسيماً شُجاعاً . وَمِنْ بَعْدِها تَوارَثَ الحُكْمَ في بِلادِها أَبْناؤُها وَحَفَدَتُها بَعْدَ أَنْ دُوِّنَتْ قِصَّتُها بِحُروفٍ مِنْ ذَهَبٍ في سِجِلِّ تاريخِ مَمْلَكَةِ التِّلالِ السَّبْعَةِ .

مُغامَرَةٌ في بَحْرِ المَرْجان

صَلْصَلَ جَرَسُ المُنَبِّهِ في حُجْرَةِ عَلاءِ الدّينِ وَأُخْتِهِ التَّوْأَمِ قَمَرِ الدّينِ . كانَتْ قَمَرُ الدّينِ عَلى مَوْعِدٍ يَوْمِيٍّ مَعَ النَّشاطِ وَالجِدِّ ؛ وَعِنْدَما يَنْتَظِمُ أَمْرُ المَرْءِ مَعَ نَفْسِهِ يَهْدَأُ بالُهُ وَخَيالُهُ وَتَنْتَظِمُ أَعْمالُهُ .

وَبِسُرْعَةٍ نَهَضَتْ قَمَرُ الدّينِ مِنْ فِراشِها ، وَأَوْقَفَتْ جَرَسَ المُنَبِّهِ . وَكانَتِ السّاعَةُ السّادِسَةَ وَالنِّصْفَ صَباحاً ، مَوْعِدَ اسْتِيقاظِها كُلَّ صَباحٍ لِلذَّهابِ إِلى المَدْرَسَةِ الابْتِدائِيَّةِ ، فَقَدْ كانَ الاثْنانِ في العاشِرَةِ مِنْ عُمْرِهِما ، حَيْثُ وُلِدا في يَوْمٍ واحِدٍ وَساعَةٍ واحِدَةٍ . لا يَكْبُرُ أَحَدُهُما وَلا يَصْغُرُ عَنِ الآخَرِ إِلا بِمِقْدارٍ يَسْمَحُ بِالتَّنَدُّرِ ، فَعِدَّةُ دَقائِقَ بَيْنَ التَّوائِمِ لا تَجْعَلُ أَحَدَهُما كَبيراً وَالآخَرَ صَغيراً بِالمَعْنى المَعْروفِ بَيْنَ الإِخْوَةِ وَالأَخَواتِ .

أَسْرَعَتْ قَمَرُ الدّينِ إِلى أَخيها عَلاءِ الدّينِ ، وَراحَتْ تَهُزُّهُ

لِتوقِظَهُ ، وَهِيَ تَقولُ : « هَيّا ، هَيّا . انْهَضْ ، يا أخي العَزيزَ عَلاءَ الدّين . يَجِبُ أنْ نَغْتَسِلَ وَنَتَناوَلَ فَطورَنا وَنُسْرِعَ إلى مَدْرَسَتِنا ، وَإلّا تَأخَّرْنا .»

وَقَدْ تَعَوَّدَتْ أنْ تُنادِيَهُ مِراراً ، وَأنْ تُشَجِّعَهُ أوْ تُهَدْهِدَهُ أوْ تَتَوَعَّدَهُ حَتّى يُلْقِيَ بِكَسَلِهِ وَيَقومَ إلى مَدْرَسَتِهِ .

قالَ عَلاءُ الدّين وَهُوَ يُخْفي وَجْهَهُ وَرَأْسَهُ تَحْتَ الغِطاءِ : « دَعيني يا قَمَرَ الدّين ، فَلَيْسَتْ بي رَغْبَةٌ في الذَّهابِ إلى المَدْرَسَةِ اليَوْمَ .»

قالَتْ قَمَرُ الدّين : « لا شَيْءَ جَديدٌ ، يا عَزيزي . أنْتَ دائِماً لا رَغْبَةَ لَدَيْكَ في الذَّهابِ إلى المَدْرَسَةِ . التَّجْديدُ في الأعْذارِ فَقَطْ ، تُرى ما هُوَ عُذْرُكَ اليَوْمَ ؟»

قالَ عَلاءُ الدّين : « إنَّني مَريضٌ ، مَريضٌ جِدًّا . أ لا تَرَيْنَ أنَّني لا أقْوى عَلى القِيامِ ؟» وَكانَت العِبارَةُ الأخيرَةُ هِيَ الجَديدَةَ حَقًّا ، فَقَدِ ادَّعى المَرَضَ مَرّاتٍ عَديدَةً مِنْ قَبْلُ ، وَكانَ كاذِباً ؛ إذْ لَمْ يَكُنْ بِهِ أيُّ مَرَضٍ وَلكِنَّهُ كانَ دائِماً ما يُلَفِّقُ الأكاذيبَ كَيْ لا يَذْهَبَ إلى المَدْرَسَةِ .

قالَتْ قَمَرُ الدّين وَهِيَ تُحاوِلُ أنْ تَجْعَلَ ضِحْكَها سِرًّا مَكْتوماً ؛ لِتُجارِيَ أكاذيبَ أخيها ، حَتّى تَصِلَ إلى هَدَفِها المَأمولِ : « إذا

سَأُخْبِرُ والِدَيْنا بِمَرَضِكَ لِيَأْتِيانا بِطَبيبٍ يُشَخِّصُ الدّاءَ ، وَيَصِفُ الدَّواءَ ، وَيُحَدِّدُ لَكَ أنْواعَ الطَّعامِ وَطَريقَةَ الجُلوسِ وَالقِيامِ .»

كانَ عَلاءُ الدّين يُطِلُّ بِأُذُنَيْهِ مِنْ تَحْتِ الغِطاءِ ، وَقَدْ شَغَلَتْهُ الدَّهْشَةُ عَنْ دَوْرِ المَريضِ الَّذي يَقومُ بِهِ ، فَفَغَرَ فاهُ ، وَحَدَّقَ إلى أُخْتِهِ صائِحاً : « لا ، لا . ما هَذا الَّذي تَقولينَ ، يا أُخْتي العَزيزَةَ ؟ أنا لا أُحِبُّ الدَّواءَ لأنَّهُ مُرُّ المَذاقِ .»

وَعَلاءُ الدّين مُتَمَرِّسٌ مُتَعَوِّدٌ عَلى اخْتِلاقِ الأعْذارِ ، لِهَذا انْتَقَلَ بِسُهولَةٍ وَيُسْرٍ إلى عُذْرٍ آخَرَ . وَكانَ أقْرَبَ إلى الصِّدْقِ ، فَقالَ مُتَبَرِّماً واجِماً : « إنَّني لا أُحِبُّ دُروسَ العُلومِ ، وَلا أُحِبُّ الحِسابَ وَلا القِراءَةَ . لِمَ كُلُّ هَذا العَناءِ في القِيامِ ، وَفي الغُدُوِّ وَالرَّواحِ ، وَالوُقوفِ في الصُّفوفِ ، وَالجُلوسِ في الفُصولِ ، وَسَماعِ كَلامٍ ثَقيلٍ مُمِلٍّ ، نُسْأَلُ فيهِ ، وَنُكَلَّفُ بِهِ ، وَنُمْتَحَنُ فيهِ ؟ هَلْ تُساوي هَذِهِ الأشْياءُ الَّتي تَتَعَلَّمينَها أنْتِ وَبَقِيَّةُ البَناتِ وَالبَنينَ ما نُعانيهِ جَميعاً وَنُلاقيهِ في سَبيلِها ؟ ماذا سَنَنْقُصُ لَوْ لَمْ نَنْجَحْ فيها ، بَلْ لَوْ لَمْ نَسْمَعْها ألْبَتَّةَ ؟»

قالَتْ قَمَرُ الدّين : « إنَّ كُلَّ هَذِهِ العُلومِ مُهِمَّةٌ وَمُفيدَةٌ لِلإنْسانِ ؛ لأنَّها تُعَلِّمُهُ أسْرارَ الكَوْنِ حَوْلَهُ وَتَفْتَحُ لَهُ آفاقَ المَعْرِفَةِ ، تَماماً مِثْلَما تَفْتَحُ أوْسَعَ النَّوافِذِ عَلى أجْمَلِ الحَدائِقِ . هَيّا ، هَيّا ؛ فَلا وَقْتَ

لإضاعتِهِ في المُناقشةِ والجدلِ . أ لمْ تسمعْ أغْنيَّةَ هيّا هيّا إلى العملِ ؟» قالَتْها قمرُ الدين بِصوْتٍ جميلٍ على وَقْعِ لحْنِ الأغْنيةِ الأصيلِ . واتَّجهَ الاثْنانِ خارجَ حُجْرتِهما فغَسَلا وَجْهَيْهِما وبدَّلا ملابِسَهُما ، ثُمَّ جلَسا لِتناوُلِ الإفْطارِ مَعَ والِدتِهِما و والِدِهِما .

وبدأتْ قمرُ الدين تأكُلُ بِشهيَّةٍ كما يفْعلُ الإنْسانُ النَّشِطُ المُتفائِلُ ، على حينَ جلَسَ علاءُ الدِّين ينظُرُ إلى الطَّعامِ كأنَّهُ درْسٌ في العُلومِ أوِ الجُغْرافيا ، فسأَلَتْهُ والِدتُهُ : « لِمَ لا تأْكُلُ يا علاءَ الدِّين ؟» هزَّ علاءُ الدِّين كتفيْهِ مُتأفِّفًا ، وقالَ : « ليْستْ بي حاجةٌ لِلطَّعامِ ؛ ثُمَّ ما فائِدةُ الطَّعامِ لِلإنْسانِ ؟»

ردَّ الوالِدُ : « إنَّ الطَّعامَ يمُدُّ أجْسادَنا بِالنَّشاطِ والقُوَّةِ والحياةِ ويرْبطُ بيْنَنا بِرِباطٍ وثيقٍ ، كما يجْمعُ فصْلُ المدْرسةِ بيْنَ التَّلاميذِ والدُّروسِ ذلكَ الجمْعَ الأخَويَّ . إنَّ الطَّعامَ لِلإنْسانِ يا علاءَ الدِّين، كالبِنْزينِ لِلسَّيَّارةِ والطَّائِرةِ ، بِدونِهِ لا تَسيرُ السَّيَّارةُ ، ولا تطيرُ الطَّيَّارةُ. وإنْ نَفِدَ فجْأةً تعطَّلَتِ السَّيَّاراتُ وتحطَّمتِ الطَّائِراتُ . هيّا ، هيّا ، تناوَلْ إفْطارَكَ حتّى تسْتطيعَ أنْ تُواصِلَ دُروسَكَ وعملَكَ بِنشاطٍ واهْتِمامٍ .»

تنازَلَ علاءُ الدِّين عنْ بعْضِ امْتِعاضِهِ فتناوَلَ بِضعَ لُقيْماتٍ ، ثُمّ

أسْرعَ مَعَ أخْتِهِ ذاهِبيْنِ إلى مدْرستِهِما الابْتدائيَّةِ القرْيبةِ ، الَّتي تقَعُ على شاطِئِ البحْرِ الأحْمرِ الَّذي يَعيشانِ بِالقُرْبِ مِنْهُ .

كانَ الدَّرْسُ الأوَّلُ في ذلِكَ اليوْمِ هُوَ درْسَ العُلومِ ، ولَمْ يسْتطِعْ علاءُ الدِّين الإجابَةَ عَنْ أسْئِلةِ المُدرِّسِ ، وتكرَّرَ الأمْرُ نفْسُهُ في درْسِ الحِسابِ ودرْسِ اللُّغةِ العربيَّةِ ، في حينَ أجابَتْ قمرُ الدِّين عَنْ أكْثرِ الأسْئِلةِ في كُلِّ الدُّروسِ ، لأنَّها تُنظِّمُ وقْتَها بيْنَ الاسْتِذْكارِ واللَّعِبِ والسَّمرِ والرِّياضةِ والنَّوْمِ ، ولا تُؤجِّلُ عملَ اليوْمِ إلى الغدِ ، حتّى إنَّ هذِهِ العِبارةَ الأخيرةَ كتَبَتْها بِخطٍّ جميلٍ كبيرٍ وَ وضَعتْها أمامَها .

كانَتِ المدْرسةُ تُعاقِبُ المُهْمِلَ وتُثيبُ المُجْتهِدَ ؛ فلَقِيَ علاءُ الدِّين ما تعوَّدَهُ مِنَ العِقابِ والمُؤاخذةِ ، وحظِيَتْ قمرُ الدِّين بِما يُناسِبُها مِنَ التَّقْديرِ والمُكافأةِ .

صحيحٌ أنَّ علاءَ الدِّين وأخْتَهُ قمرَ الدِّين كانا توْأمَيْنِ ، وكانا مُتماثِليْنِ في شكْلِهِما بِدرجةٍ كبيرةٍ ، ولا يُميِّزُهُما عَنْ بعْضِهِما سِوى شعْرِ قمرِ الدِّين الطَّويلِ وملابِسِها المُزرْكشةِ المُطرَّزةِ . ولكِنَّهُما كانا مُخْتلِفيْنِ في طِباعِهِما ؛ فعلاءُ الدِّين كانَ كسولًا مُهْمِلًا ، يُفضِّلُ اللَّعِبَ على الاسْتِذْكارِ ، وكانَ يعْلَمُ أنَّ الصِّدْقَ كحقْنةِ

الدَّواءِ يَجِبُ مُراعاةُ التَّعْقيم فيها ، وَلكِنَّهُ كانَ كثيراً ما يَكْذِبُ أَوْ يَخْدَعُ الآخَرينَ ؛ فكانَ يَخْلِطُ الصِّدْقَ بِالكَذِبِ كَما يَغُشُّ اللَّبّانُ السَّيِّئُ اللَّبَنَ بِالماءِ وَالدَّقيقِ وَالشَّمعِ . وَعَلى العَكْسِ مِنْهُ أُخْتُهُ قَمَرُ الدِّين ، فَقَدْ كانَتْ نَشيطَةً مُجِدَّةً لا تَخْلِطُ أَوْقاتَ المُذاكَرَةِ بِأَوْقاتِ الفَراغِ وَاللَّهْوِ . وَكانَتْ لا تَكْذِبُ لأَيِّ سَبَبٍ ؛ لأَنَّها تَعْلَمُ أَنَّ الكَذِبَ صِفَةٌ سَيِّئَةٌ لا تَليقُ بِالإِنْسانِ إِذا كانَ شُجاعاً يُفَرِّقُ بَيْنَ الخَطَأِ وَالصَّوابِ ، وَاللَّعِبِ وَالجِدِّ ، وَالضّارِّ وَالنّافِعِ .

وَعِنْدَما غادَرَ عَلاءُ الدِّين وَأُخْتُهُ قَمَرُ الدِّين مَدْرَسَتَهُما ، قالَ عَلاءُ الدِّين لأُخْتِهِ ، وَهُما يَمُرّانِ عائِدَيْنِ بِشاطِئِ البَحْرِ : « لَقَدْ تَعِبْنا كَثيراً مِنْ دُروسِ اليَوْمِ ، فَما رَأْيُكِ في اللَّعِبِ قَليلاً عَلى الشّاطِئِ ؟»

وَلكِنَّ قَمَرَ الدِّين هَزَّتْ رَأْسَها مُؤَكِّدَةً بِذَلِكَ رَفْضَها ، ثُمَّ قالَتْ بِصَوْتٍ صارِخٍ : « لا ، لا يا عَلاءَ الدِّين ، يَجِبُ أَنْ نَعودَ إِلى مَنْزِلِنا . إِنَّ أَبَوَيْنا يَنْتَظِرانِنا الآنَ ، وَيَعُدّانِ الدَّقائِقَ وَالثَّوانِيَ . إِنَّهُما لا يُطيقانِ تَأَخُّرَنا عَنْ مَوْعِدِنا وَلَوْ قَليلاً . هَلْ تَفْهَمُ ، يا عَلاءَ الدِّين ؟»

صاحَ عَلاءُ الدِّين : « إِنَّنا لَنْ نَتَأَخَّرَ كَثيراً .»

وَخَلَعَ مَلابِسَهُ بِسُرْعَةٍ ، وَكانَ يَرْتَدي تَحْتَها لِباسَ البَحْرِ ، وَأَلْقى بِنَفْسِهِ في الماءِ .

وَ وَقَفَتْ قَمَرُ الدِّين عَلى شاطِئِ البَحْرِ وَهِيَ تُراقِبُ أَخاها بِصَبْرٍ نافِدٍ ، وَتُحاوِلُ أَنْ تُلاحِقَهُ وَهُوَ يَغوصُ وَيَطْفو ، وَصاحَتْ بِهِ أَخيراً : « هَيّا اخْرُجْ ، يا عَلاءَ الدِّين ، وَإِلّا سَبَّبْنا القَلَقَ لِوالِدَيْنا ، وَما أَكْثَرَ ما تَسَبَّبَ لَهُما القَلَقُ في الصُّداعِ ! أَلا تَتَذَكَّرُ يا عَلاءَ الدِّين ؟»

صاحَ عَلاءُ الدِّين مِنْ داخِلِ الماءِ : « الصُّداعُ ! الصُّداعُ ! مَنِ الَّذي يَجْلُبُهُ الآنَ لِلآخَرينَ ؟ لِماذا لا تَأْتينَ وَتَسْبَحينَ مَعي قَليلاً يا أُخْتي العَزيزَةَ ؟ أَلَيْسَتْ هذِهِ فُرْصَةً لِلرّاحَةِ بَعْدَ العَناءِ ؟»

اِزْدادَتْ قَمَرُ الدِّين حِدَّةً وَغَضَباً ، وَصَرَخَتْ : « هَذا لَيْسَ وَقْتَ اللَّعِبِ وَاللَّهْوِ وَالاسْتِحْمامِ ، يا عَلاءَ الدِّين ! هَيّا اخْرُجْ مِنَ الماءِ . إِنَّني أُشْفِقُ عَلَيْكَ دائِماً ، وَلكِنَّ أَبَوَيْنا هُما الجَديرانِ وَحْدَهُما بِكُلِّ ما لَدَيْنا مِنَ الإِشْفاقِ .»

ضَحِكَ عَلاءُ الدِّين في نَفْسِهِ ، وَلَمْ يُجِبْ أُخْتَهُ ، وَقالَ لِنَفْسِهِ : « سَوْفَ أُؤَلِّفُ قِصَّةً تُخيفُ أُخْتي قَمَرَ الدِّين وَتَشْغَلُها وَتُجْبِرُها عَلى النُّزولِ مَعي إِلى الماءِ .»

وَتَظاهَرَ عَلاءُ الدِّين بِالغَرَقِ ، وَراحَ يَصيحُ : « أَنْقِذيني يا قَمَرَ الدِّين ! أَنْقِذيني يا قَمَرَ الدِّين ! إِنَّني أَغْرَقُ ! أَقولُ بِصَوْتٍ عالٍ إِنَّني أَغْرَقُ ! أَلا تَسْمَعينَ ؟»

شَلَّ المَشْهَدُ كُلُّهُ عَقْلَها عَنِ التَّفْكيرِ ، ولِسانَها عَنِ النُّطْقِ ، وَصَعَقَتِ الدَّهْشَةُ مَلامِحَها ، فَلَمْ يَبْقَ إلّا الصَّمْتُ وَالجُمودُ وَعَيْنانِ جاحِظَتانِ وَفَمٌ مَفْغورٌ وَحالَةٌ لِلْوَجْهِ غَريبَةٌ ، يُفْهَمُ مِنْها أَنَّها لا تُصَدِّقُ ما يَحْدُثُ .

وَلكِنَّ عَلاءَ الدِّينِ اسْتَمَرَّ يَصيحُ وَكَأَنَّهُ يَغْرَقُ : « أَسْرِعي يا قَمَرَ الدِّينِ لإِنْقاذي ؛ فَإِنَّ جِنِّيَّةَ البَحْرِ الشِّرِّيرَةَ تَشُدُّني مِنْ ساقَيَّ إلى أَسْفَلَ لِتُغْرِقَني !» وَغاصَ إلى أَسْفَلَ كَأَنَّما جِنِّيَّةُ البَحْرِ المَزْعومَةُ تَشُدُّهُ بِالفِعْلِ لِتُغْرِقَهُ . وَما كادَتْ قَمَرُ الدِّينِ تُشاهِدُ أَخاها التَّوْأَمَ يَغْطِسُ تَحْتَ الماءِ ، حَتّى انْتَفَضَتْ عائِدَةً إلى وَعْيِها ، وَكانَ أَوَّلَ شَيْءٍ فَعَلَتْهُ أَنْ صَرَخَتْ صَرْخَةً خالِصَةً ، لَيْسَ فيها كَلامٌ وَلا إِشارَةٌ ، وَهِيَ تَظُنُّ أَنَّ جِنِّيَّةَ البَحْرِ الشِّرِّيرَةَ تَجْذِبُ أَخاها مِنْ ساقَيْهِ لِتُغْرِقَهُ في قاعِ البَحْرِ . وَهكَذا يَرى المَرْءُ الأَشْياءَ عَلى غَيْرِ حَقيقَتِها مِنْ شِدَّةِ الدَّهْشَةِ وَهَوْلِ المُفاجَأَةِ ، فَأَسْرَعَتْ تَجْري نَحْوَ الأَمْواجِ وَأَلْقَتْ نَفْسَها دُفْعَةً واحِدَةً في خِضَمِّها ، وَراحَتْ تَسْبَحُ بِقُوَّةٍ ، وَبِالطَّبْعِ لَمْ تَخْلَعْ مَلابِسَها ؛ فَلَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ وَقْتٌ لِلصَّبْرِ وَلا لِلْفِكْرِ . وَأَخَذَتْ تَسْبَحُ نَحْوَ أَخيها وَهِيَ لا تَعْلَمُ أَنَّهُ يَخْدَعُها ، وَأَنَّهُ لَيْسَتْ هُناكَ جِنِّيَّةٌ لِلْبَحْرِ تَجْذِبُهُ لأَسْفَلَ لِتُغْرِقَهُ . وَلَوْ كانَتْ تَعْلَمُ أَنَّهُ يَخْدَعُها ما ظَفِرَتْ بِمِثْلِ هذِهِ القُوَّةِ ، وَلا بِالقُوَّةِ المُعْتادَةِ ، وَلا بِشَيْءٍ ما مِنَ القُوَّةِ .

وَضَحِكَ عَلاءُ الدِّينِ عِنْدَما شاهَدَ أُخْتَهُ تَقْتَرِبُ سابِحَةً نَحْوَهُ لِتُنْقِذَهُ ، فَغاصَ في الماءِ وَاخْتَفى عَنْ عَيْنَي قَمَرِ الدِّينِ ، كَأَنَّما جِنِّيَّةُ البَحْرِ الشِّرِّيرَةُ قَدْ أَغْرَقَتْهُ فِعْلاً .

وَغاصَ في الماءِ مُبْتَعِداً عَنْ مَكانِهِ ، وَكَتَمَ عَلاءُ الدِّينِ أَنْفاسَهُ تَحْتَ الماءِ قَدْرَ ما يَسْتَطيعُ حَتّى ضاقَ صَدْرُهُ ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ خارِجَ الماءِ وَتَنَفَّسَ بِعُمْقٍ ، وَأَخَذَ يَتَلَفَّتُ حَوْلَهُ باحِثاً عَنْ أُخْتِهِ قَمَرِ الدِّينِ ، وَلكِنَّهُ لَمْ يَرَها في أَيِّ مَكانٍ .

قالَ عَلاءُ الدِّينِ لِنَفْسِهِ : « لَعَلَّ أُخْتي قَمَرَ الدِّينِ غاصَتْ لِتَبْحَثَ عَنّي وَتُنْقِذَني . سَوْفَ أَغوصُ لأُفاجِئَها وَهِيَ تَبْحَثُ عَنّي .»

وَمَلأَ صَدْرَهُ بِالهَواءِ ثانِيَةً وَغَطَسَ ، وَأَخَذَ يَبْحَثُ عَنْ أُخْتِهِ هُنا وَهُناكَ وَلكِنَّهُ لَمْ يُشاهِدْها . وَعِنْدَما أَعْوَزَهُ الهَواءُ رَفَعَ رَأْسَهُ فَوْقَ الماءِ وَهُوَ يَنْظُرُ حَوْلَهُ في كُلِّ اتِّجاهٍ ، وَلكِنَّهُ لَمْ يَعْثُرْ لأُخْتِهِ قَمَرِ الدِّينِ عَلى أَثَرٍ . وَبَدا الخَوْفُ عَلى وَجْهِ عَلاءِ الدِّينِ ، وَهَمَسَ لِنَفْسِهِ : « أَيْنَ ذَهَبَتْ قَمَرُ الدِّينِ ؟» وَنَظَرَ نَحْوَ الشّاطِئِ فَلَمَحَ حَقيبَتَهُ وَحَقيبَةَ أُخْتِهِ ، وَلكِنَّ قَمَرَ الدِّينِ لَمْ تَكُنْ عَلى الشّاطِئِ ، وَلا في البَحْرِ ، وَلا في أَيِّ مَكانٍ آخَرَ .

وَاكْتَسَتْ مَلامِحُ عَلاءِ الدِّينِ بِالخَوْفِ الشَّديدِ ، وَتِلْكَ هِيَ أُولى

عَلاماتِ الألَمِ وَالنَّدَمِ ، فَصاحَ بِأعْلى صَوْتِهِ : « أيْنَ أنتِ يا قَمَرَ الدِّين ؟ قَمَرَ الدين ، أيْنَ اخْتَفَيْتِ يا أُخْتِيَ العَزيزَةَ ؟ أجيبيني ! إنّي نادِمٌ ، يا قَمَرَ الدِّين ! »

وَلَمْ يَتَلَقَّ رَدًّا ، وَخَطَرَ لَهُ أنْ تَكونَ أُخْتُهُ قَدْ غَرِقَتْ ؛ فَظَهَرَ الرُّعْبُ في عَيْنَيْهِ ، وَصاحَ ثانِيَةً : « أيْنَ أنْتِ يا قَمَرَ الدِّين ؟ لَقَدْ نَدِمْتُ ! إنَّني هُنا لَمْ أغْرَقْ . هَيّا اظْهَري ، يا قَمَرَ الدِّين ، وَدَعينا نَعُدْ إلى المَنْزِلِ . كُنْتِ تُريدينَ أنْ نَعودَ ؛ فَهَيّا بِنا كَيْ نَعودَ إلى المَنْزِلِ . كُنْتِ تَخْشَيْنَ عَلى أُمِّنا وَأبينا مِنَ الصُّداعِ ، فَهأنَذا أُعاني مِنْهُ وَأعْرِفُ ما تَعْرِفينَهُ عَنْهُ . »

وَلكِنَّ قَمَرَ الدِّين لَمْ تَرُدَّ أوْ تَظْهَرْ بِأيِّ حالٍ . وَارْتَعَدَ عَلاءُ الدِّين وَغاصَ في البَحْرِ مَرّاتٍ وَمَرّاتٍ يُقَلِّبُ الماءَ وَيَفْحَصُ المَوْجَ وَيَتَصَفَّحُهُ؛ فَلَمْ يَعْثُرْ لَها عَلى أثَرٍ . وَلَعِبَ بِهِ الرُّعْبُ فَخَرَجَ مِنَ الماءِ وَهُوَ يَبْكي وَيَصيحُ : « أيْنَ ذَهَبْتِ ، يا قَمَرَ الدِّين ؟ أيْنَ أنْتِ ، يا أُخْتِيَ العَزيزَةَ ؟ »

وَسالَتِ العَبَراتُ مِنْ عَيْنَيْهِ ، وَأخْفى وَجْهَهُ بِيَدَيْهِ وَهُوَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِصَوْتٍ باكٍ : « لا بُدَّ أنَّها غَرِقَتْ ! لَقَدْ غَرِقَتْ قَمَرُ الدِّين ، وَأنا السَّبَبُ في غَرَقِها . ماذا أفْعَلُ الآنَ ؟ وَماذا أقولُ لأبي وَأُمّي إذا سَألاني عَنْ أُخْتِيَ العَزيزَةِ قَمَرِ الدِّين ؟ لا يُمْكِنُ أنْ أعودَ بِدونِها

إلى المَنْزِلِ أبَدًا . »

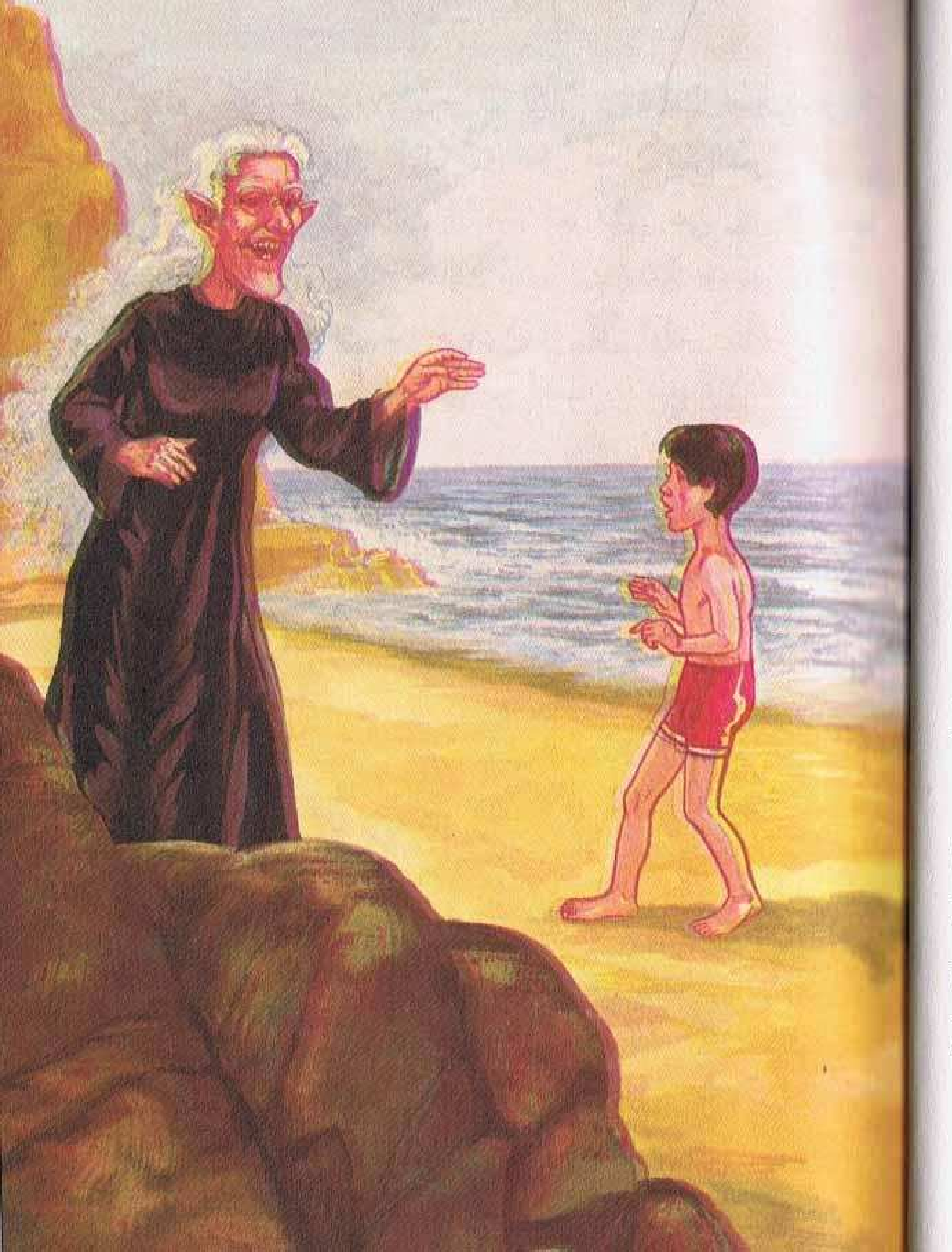
وَأخَذَ يَبْكي بِحُرْقَةٍ مَرَّةً أُخْرى ، حَتّى احْمَرَّتْ عَيْناهُ مِنْ شِدَّةِ البُكاءِ ، وَبُحَّ صَوْتُهُ مِنَ الصُّراخِ وَالنِّداءِ عَلى أُخْتِهِ قَمَرِ الدِّين .

وَفَجْأةً هَزَّ المَكانَ صَوْتُ ضِحْكَةٍ مُجَلْجِلَةٍ ، فَكَفَّ عَلاءُ الدِّين عَنِ البُكاءِ ، وَنَظَرَ حَوْلَهُ ذاهِلاً لِيَرى مَصْدَرَ تِلْكَ الضِّحْكاتِ العالِيَةِ الغَريبَةِ ، الَّتي تَبْدو وَكَأنَّها صَوْتُ البَرْقِ أوِ الرَّعْدِ ، مُخْتَلِطًا بِصَوْتِ هَديرِ الأمْواجِ الصّاخِبَةِ وَزَئيرِ الرِّياحِ العاتِيَةِ .

وَشاهَدَ عَلاءُ الدِّين أمامَهُ سَيِّدَةً عَجوزًا عَجيبَةَ الهَيْئَةِ تَضْحَكُ ، وَكانَتْ ضِحِكاتُها هِيَ تِلْكَ الأصْواتَ العَجيبَةَ المُخْتَلِطَةَ المُزْعِجَةَ .

كانَتِ السَّيِّدَةُ العَجوزُ تَبْدو وَكَأنَّ عُمْرَها مائَةٌ أوْ مائَتانِ ، وَرُبَّما أوْشَكَ عَلاءُ الدِّين أنْ يُقَدِّرَ عُمْرَها بِألْفِ عامٍ . وَكانَتْ تَرْتَدي مَلابِسَ سَوْداءَ طَويلَةً تُغَطّي جَسَدَها كُلَّهُ وَلا يَبْرُزُ مِنْها إلّا كَفّاها المَعْروقَتانِ ، كَأنَّهُما جُذورُ شَجَرَةٍ يابِسَةٍ .

وَكانَ وَجْهُ العَجوزِ عَجيبًا مُرْعِبًا : فَعَيْناها غائِرَتانِ مُخيفَتانِ ، كَأنَّهُما عَيْنا صَقْرٍ ؛ وَحاجِباها كَثيفا الشَّعْرِ كَلِحاءِ شَجَرَةٍ تَيَبَّسَ عودُها ؛ وَأنْفُها طَويلٌ حادٌّ كالجَزَرَةِ الحَمْراءِ ؛ وَفَمُها مَليءٌ بِالتَّجاعيدِ وَالخُطوطِ كَأنَّهُ ميناءٌ واسِعٌ تَعَطَّلَتْ عَلى جَوانِبِهِ قَوارِبُ



صَغيرَة مُهشَّمَة ، وَ بَشرَتُها مُجعَّدَة أشْبهُ بِتُفَّاحَةٍ أصابها العطَن مُنْذُ وَقْتٍ طَويل . وكانَ شعْرُها أشْيَبَ ، وَكانَ لَها أُذُنانِ عَجيبَتانِ كَبيرَتانِ مُتَدلِّيتانِ ، وَتَمْتَلِئانِ بِالغُضونِ وَالعُروقِ الزَّرْقاءِ .

وَقفَ عَلاءُ الدِّين دَهِشاً حائِراً أمامَ العَجوزِ العَجيبَةِ ، وَقَدْ كَفَّتْ عَنِ الضَّحِكِ ، وَرَمَقَتْهُ بِعَيْنَيْها ؛ فَسَأَلَها عَلاءُ الدِّين مُرْتَعِباً : « مَنْ أنْتِ ؟ »

ضَحِكَتِ العَجوزُ مَرَّةً ثانِيَةً فَخَرَجَتْ أصْواتُ ضَحِكاتِها كَأنَّها قَرْعُ الطُّبولِ ، حَتَّى إنَّ الأشْجارَ القَرِيبَةَ ارْتَجفَتْ أوْراقُها وَاهْتَزَّتْ أغْصانُها . وَقالَتِ العَجوزُ بِصَوْتٍ عَميقٍ حادٍّ : « أ لا تَدْري مَنْ أنا أيُّها الوَلَدُ الشَّقِيُّ الكاذِبُ ؟ إنَّني جِنِّيَّةُ البَحْرِ . »

تَراجَعَ عَلاءُ الدِّين في خَوْفٍ ، وَقَدْ مَلأَ الرُّعْبُ قَلْبَهُ ، وَقالَ غَيْرَ مُصَدِّقٍ : « جِنِّيَّةٌ أنْتِ ؟ أنْتِ جِنِّيَّةُ البَحْرِ ؟ »

رَدَّتِ العَجوزُ : « نَعَمْ ، نَعَمْ . إنَّني جِنِّيَّةُ البَحْرِ الَّتي اتَّهَمْتَها زوراً بِأنَّها تَجُرُّكَ مِنْ قَدَمَيْكَ لِتُغْرِقَكَ في ماءِ البَحْرِ . لَقَدْ جِئْتُ لِعِقابِكَ عِنْدَما وَصَلَتْ كَلِماتُكَ الكاذِبَةُ إلى أذُني . إنَّني دائِماً أعاقِبُ الكاذِبينَ وَالمُخادِعينَ . أ لا تَعْلَمُ أنَّ لَهُمْ عِقاباً يَنْتَظِرُهُمْ طالَ الوَقْتُ أمْ قَصُرَ ؟ »

وَقفَ علاءُ الدِّين لا يَدْري بِمَ يَنْطِقُ . وَقطَّبَتْ جِنِّيَّةُ البَحْرِ حاجِبَيْها وَقالَتْ : « إنَّني أعْلَمُ أنَّكَ تُحِبُّ أُخْتَكَ قَمرَ الدِّين حُبًّا جَمًّا ؛ وَلِذَلِكَ قَرَّرتُ عِقابَكَ بِأنْ آخُذَ قَمَرَ الدِّين مَعي إلى قاعِ البِحارِ وَالمُحيطاتِ . جَعَلْتُ عِقابَكَ مُناسِباً لَكَ . لَقَدْ خَدَعْتَها بَعْضَ الوَقْتِ ، فاخْتَرْتُ لَكَ أنْ أحْرِمَكَ مِنْها كُلَّ الوَقْتِ . إنَّكَ وَلَدٌ كَذّابٌ مُخادِعٌ تَسْتَحِقُّ الحِرْمانَ مِنْ أحَبِّ الأشْياءِ وَالأشْخاصِ إلَيْكَ .»

صَرَخَ عَلاءُ الدِّين مُرْتَعِباً : « لا ، لا . لَقَدْ أدْرَكْتُ ذَلِكَ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسي ، وَعَرَفْتُ أنَّني أسْتَحِقُّ ما يَحْدُثُ لي . وَلكِنْ أسْتَحْلِفُكِ بِأحَبِّ المَخْلوقاتِ إلَيْكِ وَأحَبِّ شَيْءٍ أنْ تُجيبيني ؛ أ غَرِقَتْ أُخْتي قَمَرُ الدِّين ؟»

أجابَتْ جِنِّيَّةُ البَحْرِ : « إنَّ أُخْتَكَ لَمْ تَغْرَقْ . إنَّها في سُباتٍ عَميقٍ ، وَسَوْفَ تَظَلُّ مَعي إلى الأبَدِ . أ لَمْ أقُلْ لَكَ إنَّ هَذا أقْسى عِقابٍ لَكَ أيُّها الوَلَدُ الشَّقِيُّ ؟»

صَرَخَ عَلاءُ الدِّين بِصَوْتٍ باكٍ : « لا ، لا أيَّتُها الجِنِّيَّةُ . أرْجوكِ دَعي أُخْتي قَمَرَ الدِّين . أرْجوكِ أعيديها إلَيَّ فَأنا أحِبُّها ، وَأبَوانا يَنْتَظِرانِنا ، وَلا يُطيقانِ انْتِظارَنا طَويلاً . إنَّهما يَعُدّانِ الدَّقائِقَ وَالثَّواني وَيَقْلَقانِ إذا تَأخَّرْنا ، وَكَثيراً ما يُصيبُهُما القَلَقُ بِالصُّداعِ .»

وَبَكى بِحُرْقَةٍ وَهُوَ يَتَوَسَّلُ إلى الجِنِّيَّةِ العَجوزِ ، وَلكِنَّها رَدَّتْ بِحَسْمٍ : « لَنْ أرْحَمَكَ أبَداً . إنَّ الرَّحْمَةَ مَعَ مِثْلِكَ تَضُرُّ أكْثَرَ مِمّا تَنْفَعُ . اِسْمَعْ ! القَسْوَةُ هِيَ الدَّواءُ الَّذي يُناسِبُ حالَتَكَ . يَجِبُ أنْ تَتَحَمَّلَ عاقِبَةَ كَذِبِكَ وَخِداعِكَ . إنْ كُنْتَ تُريدُ اسْتِعادَةَ أُخْتِكَ قَمَرِ الدِّين فابْحَثْ عَنْها . اِبْحَثْ عَنْها في كُلِّ بِحارِ الدُّنْيا وَمُحيطاتِها !» وَأخَذَتْ تَسيرُ فَوْقَ الماءِ . وَانْدَفَعَ عَلاءُ الدِّين خَلْفَها باكِياً مُتَوَسِّلاً وَهُوَ يَقولُ : « أرْجوكِ أيَّتُها الجِنِّيَّةُ ! أرْجوكِ أعيدي إلَيَّ أُخْتي الحَبيبَةَ قَمَرَ الدِّين .»

وَلكِنَّ الجِنِّيَّةَ لَمْ تَسْمَعْ لَهُ ، وَغاصَتْ داخِلَ الماءِ حَتّى اخْتَفَتْ وَلَمْ يَعُدْ يَبينُ لَها أيُّ أثَرٍ . وَانْدَفَعَ عَلاءُ الدِّين وَراءَها ، غائِصاً في قَلْبِ الماءِ ؛ بَحْثاً عَنْ أُخْتِهِ قَمَرِ الدِّين .

غاصَ عَلاءُ الدِّين خَلْفَ جِنِّيَّةِ البَحْرِ بِسُرْعَةٍ لِيَلْحَقَ بِها وَيَرْجُوَها أنْ تُعيدَ إلَيْهِ أُخْتَهُ قَمَرَ الدِّين . وَنَسِيَ أنْ يَتَنَفَّسَ نَفَساً عَميقاً ، وَأدْهَشَهُ أنَّهُ ظَلَّ يَغوصُ داخِلَ الماءِ بِدونِ أنْ يَضيقَ صَدْرُهُ ، وَأصْبَحَ يَتَنَفَّسُ كَأنَّما نَبَتَتْ لَهُ خَياشيمُ مَكانَ رِئَتَيْهِ ، وَكانَ هَذا جِدَّ عَجيبٍ ، وَلَمْ يَدْرِ لَهُ تَفْسيراً .

بَحَثَ عَلاءُ الدِّين عَنْ جِنِّيَّةِ البَحْرِ هُنا وَهُناكَ ، وَلكِنَّهُ لَمْ يَعْثُرْ لَها

عَلى أثَرٍ ، فَقَدِ اخْتَفَتْ بِسُرْعَةٍ عَجيبَةٍ كَأَنَّها سَمَكَةٌ ماهِرَةٌ تَعرِفُ طَريقَها تَماماً داخِلَ الماءِ . وَحارَ أَيْنَ يَتَّجِهُ داخِلَ البَحْرِ الفَسيحِ ، فَقَدْ كانَ يَعْلَمُ أَنَّ البَحْرَ جِدُّ واسِعٍ ، وَعِنْدَما كانَ يَقِفُ عَلى الشّاطِئِ مِنْ قَبْلُ لَمْ يَكُنْ يَسْتَطيعُ أَنْ يَبْلُغَ مَداهُ بِعَيْنَيْهِ ، وَلَمْ يَسْتَخْدِمْ خَيالَهُ مِنْ قَبْلُ لِقِياسِ مِساحَتِهِ ، وَلِذَلِكَ قَدَّرَ أَنَّ البَحْرَ كَبيرٌ جِدًّا .

وَكانَ عَلاءُ الدِّينِ لا يَزالُ في مِنْطَقَةٍ قَليلَةِ الغَورِ قُرْبَ الشّاطِئِ . وَعلى بُعْدِ أَمْتارٍ قَليلَةٍ وَصَلَ القاعَ ، وَكانَ مُمْتَلِئاً بِمُخْتَلِفِ الأَنْواعِ مِنَ القَواقِعِ الزّاهِيَةِ المُلَوَّنَةِ .

وَشاهَدَ بَعْضَ الأَسْماكِ المُلَوَّنَةِ تَسْبَحُ جَماعاتٍ ، فَغاصَ نَحْوَها مُسْرِعاً وَهَتَفَ بِها مُنادِياً : « أَيَّتُها السَّمَكاتُ الجَميلاتُ الفاتِناتُ ، أَما رَأَيْتُنَّ أُخْتي قَمَرَ الدِّينِ ؟»

وَلكِنَّ الأَسْماكَ المُلَوَّنَةَ رَمَقَتْ عَلاءَ الدِّينِ بِلا اهْتِمامٍ وَلَمْ تَرُدَّ عَلَيْهِ وَسَبَحَتْ بَعيداً ، وَهِيَ تَتَعَجَّبُ مِنْ شَكْلِهِ ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ زَعانِفُ أَوْ قُشورٌ أَوْ ذَيْلٌ مِثْلُها وَمِثْلُ أَيِّ سَمَكَةٍ في عالَمِ البِحارِ ، بَلْ كانَتْ لَهُ يَدانِ وَساقانِ شَأْنُ كُلِّ إِنْسانٍ . وَكَما أَنَّ السَّمَكَ لا يَعيشُ خارِجَ الماءِ ، فَإِنَّ الإِنْسانَ لا يَسْتَطيعُ العَيْشَ في قَلْبِ الماءِ ؛ لِذَلِكَ تَعَجَّبَ السَّمَكُ وَدَهِشَ .

وَاسْتَدارَ عَلاءُ الدِّينِ داخِلَ الماءِ كَسيفاً ، وَلَمْ يَجِدْ أَحَداً يَسْأَلُهُ أَوْ يَشْكو إِلَيْهِ ، فاتَّجَهَ إِلى داخِلِ نَفْسِهِ يَبْتَهِلُ في ضَراعَةٍ : « ماذا أَفْعَلُ الآنَ يا رَبِّي ؟ كَيْفَ أَبْحَثُ عَنْ شَقيقَتي وَتَوْأَمي قَمَرِ الدِّينِ في هَذا البَحْرِ الواسِعِ العَميقِ ؟ أَيْنَ قَرارُهُ ؟ أَيْنَ سُكّانُهُ ؟ كَيْفَ يَتَفاهَمونَ ؟ أَ تُراني ، يا رَبِّي ، مُكَلَّفاً بِالبَحْثِ عَنْها ؟ كَيْفَ وَلَيْسَ لي عِلْمٌ بِعالَمِ البِحارِ العَجيبِ ؟ لَيْتَني قَرَأْتُ كِتابَ العُلومِ المَدْرَسِيَّ عَنِ البِحارِ وَالأَسْماكِ ، أَوْ حَتّى قَرَأْتُ كِتاباً مِنَ الكُتُبِ الكَثيرَةِ الَّتي تَمْتَلِئُ بِها مَكْتَبَةُ أَبي عَنِ البِحارِ وَالمُحيطاتِ وَالأَسْماكِ وَكُلِّ الأَحْياءِ النَّباتِيَّةِ . لَوْ أَنَّني فَعَلْتُ ذَلِكَ لَكانَ سَهْلاً عَلَيَّ البَحْثُ عَنْ قَمَرِ الدِّينِ .

« آهٍ يا قَمَرَ الدِّينِ ! بِماذا ، يا أُخْتي ، كُنْتِ تُحِسّينَ وَأَنْتِ تَدْعينَني وَتُشَجِّعينَني ، وَتُلِحّينَ عَلَيَّ أَنْ أَطَّلِعَ عَلى كُتُبِ مَكْتَبَةِ الفَصْلِ وَمَكْتَبَةِ المَدْرَسَةِ ، وَبَعْضِ المَكْتَباتِ المُنْتَشِرَةِ في المُدُنِ وَالأَحْياءِ ؟»

وَاغْرَوْرَقَتْ عَيْناهُ بِالدُّموعِ الَّتي اخْتَلَطَتْ بِماءِ البَحْرِ ، وَجَلَسَ في القاعِ حَزيناً ، وَأَخْفى وَجْهَهُ بِيَدَيْهِ لا يُريدُ أَنْ يَرى ما حَلَّ بِهِ وَلا عَجْزَهُ عَنْ دَفْعِهِ ، وَهُوَ يَنْتَحِبُ بِشِدَّةٍ وَلا يَدْري ماذا يَفْعَلُ .

وَفَجْأَةً لَمَسَتْ يَدٌ رَقيقَةٌ كَتِفَ عَلاءِ الدِّينِ ، وَلَمْ يُصَدِّقْ –

لِلَحْظَةٍ – لِفَرْطِ رِقَّتِها أنَّها يَدٌ ، وَسَمِعَ صَوْتًا حانِيًا يَسْألُهُ : « لماذا تَبْكي ، أَيُّها الصَّديقُ ؟ »

فَتَحَ عَلاءُ الدِّين عَيْنَيْهِ دَهِشًا فَشاهَدَ مَخْلوقَةً عَجيبَةً ، هِيَ مَزيجٌ مِنَ الإنْسانِ وَالسَّمَكِ ؛ فَقَدْ كانَ النِّصْفُ الأعْلى لَها يُشْبِهُ وَجْهَ وَشَعْرَ وَجِسْمَ فَتاةٍ صَغيرَةٍ في التّاسِعَةِ أوِ العاشِرَةِ مِنَ العُمْرِ ، أمّا النِّصْفُ الأسْفَلُ فَكانَ نِصْفَ سَمَكَةٍ ، لَهُ قِشْرٌ وَذَيْلٌ ذَهَبِيُّ اللَّوْنِ .
وَكانَتْ تِلْكَ المَخْلوقَةُ العَجيبَةُ ذاتَ شَعْرٍ أسْوَدَ طَويلٍ يَصِلُ إلى مُنْتَصَفِ ذَيْلِها الذَّهَبِيِّ اللَّوْنِ .

اِرْتَعَدَ عَلاءُ الدِّين ، حَتّى إذا ما سَكَنَ عَنْهُ الخَوْفُ وَالارْتِباكُ هَتَفَ قائِلاً مُتَوَسِّلاً : « مَنْ أنْتِ أيَّتُها المَخْلوقَةُ العَجيبَةُ ؟ أ أنْتِ فَتاةٌ أمْ سَمَكَةٌ أمْ أنْتِ جِنِّيَّةٌ مِنْ جِنِّيّاتِ البَحْرِ ؟ إنَّني سَمِعْتُ وَرَأيْتُ فِعْلاً مُنْذُ قَليلٍ شَيْئًا اسْمُهُ جِنِّيَّةُ البَحْرِ ، فَهَلْ أنْتِ جِنِّيَّةُ البَحْرِ ؟ »

اِبْتَسَمَتْ وَقالَتْ : « إنَّني لَسْتُ أيًّا مِمّا ذَكَرْتَ . إنَّني عَروسُ البَحْرِ . »

تَعَجَّبَ عَلاءُ الدِّين وَسَألَ عَروسَ البَحْرِ : « هَلْ هُناكَ عَرائِسُ لِلْبَحْرِ تَعيشُ حَتّى الآنَ داخِلَ البِحارِ ؟ »

رَدَّتْ عَروسُ البَحْرِ : « نَعَمْ ، نَعَمْ ، وَإنْ كانَ عَدَدُنا صارَ قَليلاً

لِلْغايَةِ في كُلِّ بِحارِ العالَمِ . إنَّنا نَكادُ نُعَدُّ عَلى الأصابِعِ . »

وَمالَتْ عَلى عَلاءِ الدِّين بِرِقَّةٍ وَسَألَتْهُ : « لماذا كُنْتَ تَبْكي أيُّها

الصَّديقُ ؟ وَكَيْفَ لَكَ أنْ تَتَحدَّثَ وَتَتَنَفَّسَ تَحْتَ سطْحِ الماءِ وَأَنْتَ بَشَرٌ ، وَالبَشَرُ لا يَسْتَطيعونَ العَيْشَ تَحْتَ الماءِ ؟»

قَصَّ عَلَيْها عَلاءُ الدِّين ما حَدَثَ لَهُ وَلأُخْتِهِ قَمَرِ الدِّين ، وأَنْصَتَتْ إِلَيْهِ عَروسُ البَحْرِ بِاهْتِمامٍ بالغٍ ، ثُمَّ قالَتْ : « لا بُدَّ أَنَّكَ أَغْضَبْتَ جِنِّيَّةَ البَحْرِ غَضَباً شَديداً حَتَّى جَعَلَتْها تُعاقِبُكَ بِتِلْكَ الطَّريقَةِ ، فَهِيَ جِنِّيَّةٌ طَيِّبَةٌ وَلا تُعاقِبُ أَحَداً إِلّا إِذا كانَ شِرِّيراً أَوْ كاذِباً .»

أَطْرَقَ عَلاءُ الدِّين بِحُزْنٍ ، وَقالَ : « نَعَمْ ، نَعَمْ . إِنَّني كَثيراً ما ادَّعَيْتُ أَنِّي رَأَيْتُ جِنِّيَّةَ البَحْرِ تُغْرِقُ السُّفُنَ وَتَخْتَطِفُ الأَبْرِياءَ . وَفي آخِرِ مَرَّةٍ اتَّهَمْتُها كَذِباً بِأَنَّها تَجُرُّ قَدَمَيَّ في الماءِ لِتُغْرِقَني . كُنْتُ أَخْدَعُ أُخْتي قَمَرَ الدِّين .»

قالَتْ عَروسُ البَحْرِ بِإِشْفاقٍ : « لَقَدْ فاتَ أَوانُ النَّدَمِ يا صَديقي ، وَعَلَيْكَ بِمُعالَجَةِ خَطَئِكَ وَالبَحْثِ عَنْ أُخْتِكَ قَمَرِ الدِّين . مِنْ حُسْنِ الحَظِّ أَنَّهُ صارَتْ لَكَ القُدْرَةُ عَلى التَّنَفُّسِ في الماءِ .»

قالَ عَلاءُ الدِّين بِحُزْنٍ : « وَكَيْفَ أَعْثُرُ عَلى أُخْتي الحَبيبَةِ قَمَرِ الدِّين في البِحارِ وَالمُحيطاتِ الواسِعَةِ ، وَأَنا أَجْهَلُ كُلَّ أَسْرارِها ؟»

رَدَّتْ عَروسُ البَحْرِ : « لا تَحْزَنْ أَيُّها الصَّديقُ ؛ إِنَّنا – سُكّانَ البَحْرِ وَمَخْلوقاتِهِ – أَدْرى مِنْكُمْ يا مَخْلوقاتِ اليابِسَةِ بِفَوائِدِ السِّباحَةِ

وَالحَرَكَةِ الدّائِمَةِ وَدِراسَةِ البيئَةِ ؛ وَلِهَذا سَوْفَ أُساعِدُكَ في البَحْثِ ؛ فَإِنَّني خَبيرَةٌ بِعالَمِ البِحارِ وَالمُحيطاتِ . هَيّا بِنا فَإِنَّ مُهِمَّتَنا شاقَّةٌ وَطَويلَةٌ .»

هَتَفَ عَلاءُ الدِّين وَعَيْناهُ تَتَأَلَّقانِ بِبَريقِ الفَرَحِ وَالسُّرورِ : « شُكْراً، شُكْراً لَكِ أَيَّتُها المَخْلوقَةُ الرَّقيقَةُ الطَّيِّبَةُ الكَريمَةُ .»

وَأَسْرَعَ الاثْنانِ يَغوصانِ وَيَسْبَحانِ داخِلَ البَحْرِ الكَبيرِ بَحْثاً عَنْ قَمَرِ الدِّين .

وَغاصا لأَسْفَلَ فَأَخَذَتِ الإِضاءَةُ تَقِلُّ تَدْريجيًّا حَتّى كادَتْ تَنْعَدِمُ ؛ فَهَتَفَ عَلاءُ الدِّين في رَفيقَتِهِ فَزِعاً : « أَيْنَ أَنْتِ ، يا عَروسَ البَحْرِ ؟ إِنَّني لا أَرى شَيْئاً . هَلْ حَلَّ الظَّلامُ ؟»

قَرَّبَتْ عَروسُ البَحْرِ ذَيْلَها مِنْ عَلاءِ الدِّين ، وَقالَتْ لَهُ : « تَشَبَّثْ بِذَيْلي حَتّى لا تَغْرَقَ . إِنَّ الظَّلامَ لَمْ يَحِلَّ بَعْدُ وَلكِنَّنا كُلَّما تَوَغَّلْنا في أَعْماقِ البِحارِ قَلَّ الضَّوْءُ الَّذي يَصِلُ إِلَيْنا مِنَ الشَّمْسِ ، حَتّى يَنْعَدِمَ تَماماً وَيَسودَ الظَّلامُ ، فَإِذا أَخْرَجْتَ يَدَكَ لَمْ تَكَدْ تَراها .»

وَراحا يَسْبَحانِ داخِلَ الأَعْماقِ ، فَشاهَدَ عَلاءُ الدِّين مَنْظَراً رائِعاً أَدْهَشَهُ كَثيراً ؛ إِذْ رَأى قِمَماً عالِيَةً تَمْتَدُّ مِنْ قاعِ البَحْرِ إِلى أَعْلى كَأَنَّها جِبالٌ مَطْمورَةٌ بِالماءِ . وَلاحَظَتْ عَروسُ البَحْرِ دَهْشَتَهُ ، فَقالَتْ

لَهُ : « لا تَدْهَشْ ، يا عَلاءَ الدِّينِ ؛ فَإِنَّ ما تَراهُ أَمامَكَ جِبالٌ حَقيقِيَّةٌ تَحْتَ الماءِ . إِنَّ أَعْظَمَ جِبالِ العالَمِ وَأَطْوَلَها توجَدُ في المُحيطاتِ لا عَلى سَطْحِ الأَرْضِ ، وَلكِنَّنا لا نَسْتَطيعُ أَنْ نَراها إِلّا إِذا غُصْنا تَحْتَ الماءِ لِمَسافَةٍ بَعيدَةٍ .»

قالَ عَلاءُ الدِّينِ لِصَديقَتِهِ راجِيًا مُتَوَسِّلاً في ضَراعَةٍ ، وَهُوَ يُحِسُّ بِقُواهُ تَخورُ سَريعًا لِقِلَّةِ ما تَناوَلَهُ مِنْ طَعامٍ : « لَقَدْ تَعِبْتُ ؛ فَهَلْ يُمْكِنُنا أَنْ نَصْعَدَ إِلى الشّاطِئِ وَنَسْتَريحَ قَليلاً ؟»

وافَقَتْ عَروسُ البَحْرِ ، وَصَعِدَ الاثْنانِ إِلى الشّاطِئِ لِيَسْتَريحا قَليلاً ، وَتَمَدَّدا عَلى الرِّمالِ وَالماءُ يَصِلُ إِلى أَطْرافِهِما ، فَغَلَبَهُما النَّوْمُ ، وَغَرِقا في سُباتٍ عَميقٍ . وَبَعْدَ حينٍ اسْتَيْقَظا وَقَدْ حَلَّ اللَّيْلُ ، وَأَحَسَّ الاثْنانِ بِالقُوَّةِ تَعودُ إِلى بَدَنَيْهِما ، وَهَمّا بِالقَفْزِ في الماءِ لِمُواصَلَةِ البَحْثِ عَنْ قَمَرِ الدِّينِ ، وَلكِنَّ عَلاءَ الدِّينِ تَوَقَّفَ والدَّهْشَةُ تَعْلو وَجْهَهُ ، فَقَدْ كانَ مُتَأَكِّدًا أَنَّهُ عِنْدَما نامَ كانَ الماءُ يَصِلُ إِلى قَدَمَيْهِ وَإِلى ذَيْلِ عَروسِ البَحْرِ ، أَمّا الآنَ فَقَدِ انْحَسَرَ عَنْهُما بِأَكْثَرَ مِنْ ثَلاثَةِ أَمْتارٍ ، كَأَنَّما تَراجَعَ ماءُ البَحْرِ إِلى الخَلْفِ ، فَسَأَلَ رَفيقَتَهُ عَنِ السِّرِّ في تَراجُعِ ماءِ البَحْرِ .

أَدْرَكَتْ عَروسُ البَحْرِ أَنَّ مُهِمَّتَها عَظيمَةٌ ، لِأَنَّها تَقومُ بِدَوْرِ

المُعَلِّمِ في المَدْرَسَةِ ، وَمَعَ نَوْعٍ مِنَ التَّلاميذِ لا يَهْوى التَّعَلُّمَ .

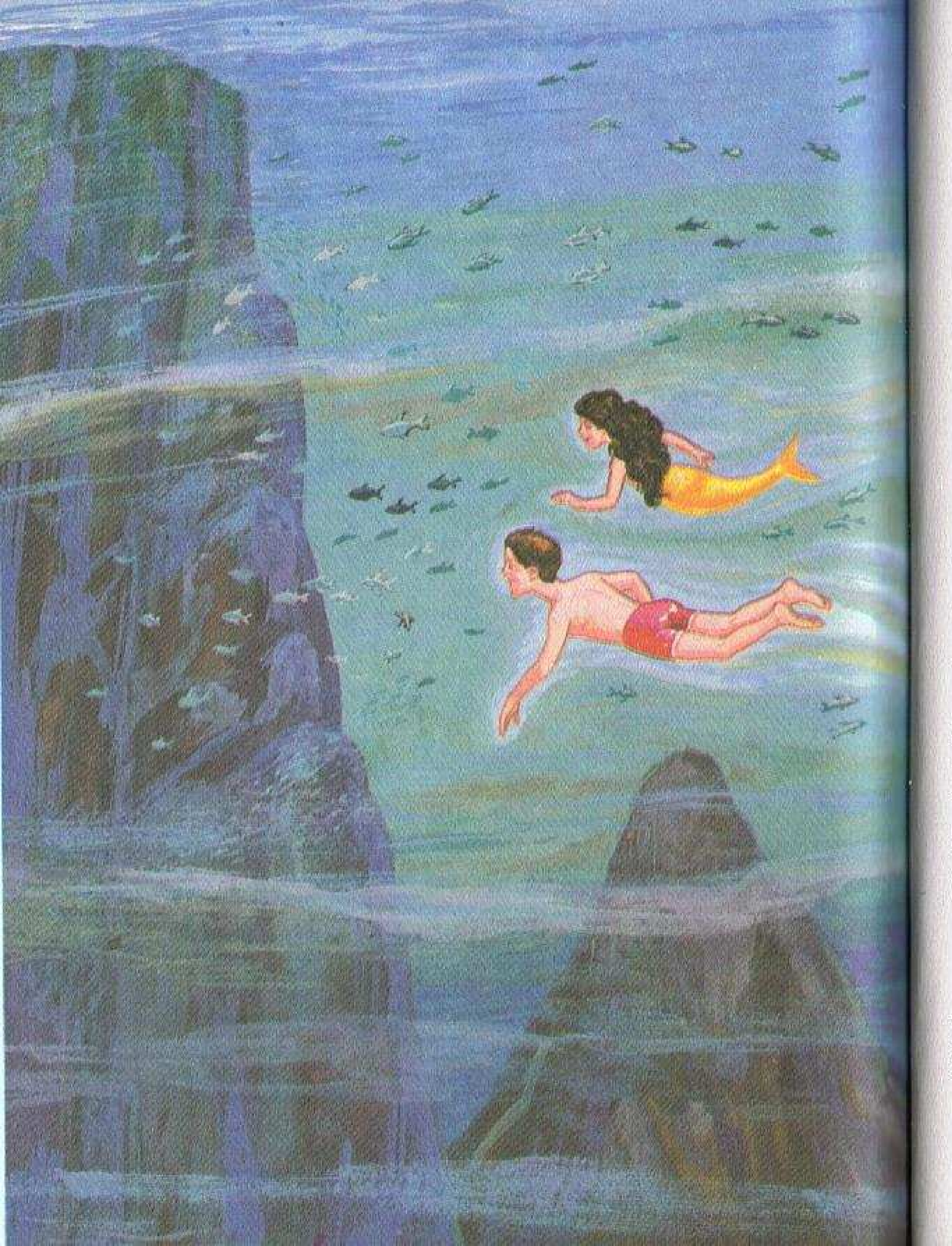
قالَتْ عَروسُ البَحْرِ : « إِنَّ ما حَدَثَ الآنَ يُسَمّى « الجَزْر » وَفيهِ يَنْحَسِرُ الماءُ عَنِ اليابِسَةِ لِعِدَّةِ أَمْتارٍ . أَمّا عَوْدَةُ الماءِ مَرَّةً ثانِيَةً فَيُسَمّى « المَدّ » ، وَهَذا يَحْدُثُ مَرَّتَيْنِ كُلَّ يَوْمٍ تَقْريبًا بِسَبَبِ جاذِبِيَّةِ القَمَرِ .»

قالَ عَلاءُ الدِّينِ : « أُنْظُري ! إِنَّ انْحِسارَ الماءِ عَنِ الشّاطِئِ قَدْ تَكَشَّفَ عَنْ بَعْضِ سَرَطاناتِ البَحْرِ وَالأَصْدافِ . إِنَّ لَها شَكْلاً جَميلاً .»

وَانْحَنى عَلاءُ الدِّينِ فَوْقَ الأَصْدافِ وَالمَحارِ يَلْتَقِطُها وَيَلْهو بِها ، فَصاحَتْ عَروسُ البَحْرِ تَلومُهُ وَتُعَنِّفُهُ : « هَلْ نَسيتَ أَنَّ أَمامَنا مُهِمَّةً شاقَّةً عاجِلَةً ، وَهِيَ البَحْثُ عَنْ أُخْتِكَ قَمَرِ الدِّينِ ؟» فَظَهَرَ الأَسَفُ وَالخَجَلُ عَلى وَجْهِ عَلاءِ الدِّينِ ، وَقالَ : « أَنا آسِفٌ ! لَقَدْ نَسيتُ . هَيّا نُواصِلْ مُهِمَّتَنا .»

وَقَفَزا إِلى البَحْرِ ، وَشَرَعا يَسْبَحانِ وَيَغوصانِ طَوالَ اللَّيْلِ ، وَيُنَقِّبانِ وَيَبْحَثانِ عَنْ قَمَرِ الدِّينِ ، وَيَسْأَلانِ عَنْها كُلَّ ما يَمُرُّ بِهِما مِنْ مَخْلوقاتٍ بَحْرِيَّةٍ ، بِدونِ أَنْ يُرْشِدَهُما أَحَدٌ إِلى الطَّريقِ إِلَيْها .

وَشاهَدَ عَلاءُ الدِّينِ سُلَحْفاةً كَبيرَةً تَسْبَحُ في الماءِ بِأَقْدامِها



الأَرْبَعَةِ ، وَقَدْ خَرَجَ رَأْسُها الصَّغيرُ خارِجَ دَرَقَتِها الكَبيرَةِ المُصَفَّحَةِ ، فَجَلَسَ فَوْقَ ظَهْرِها مَسْروراً ، وَأَخَذَتِ السُّلَحْفاةُ الكَبيرَةُ تَسْبَحُ بِهِ ، دونَ أَنْ تَشْعُرَ بِوُجودِهِ فَوْقَ ظَهْرِها .

وَفَجْأَةً رَأى عَلاءُ الدّين سِرْباً هائِلاً مِنَ الأَسْماكِ يُقَدَّرُ لِكَثْرَتِه بِالمَلايينِ ، يَمْلأُ المَكانَ حَوْلَهُ ، حَتَّى إِنَّ السُّلَحْفاةَ الضَّخْمَةَ أَسْرَعَتْ هارِبَةً مِنْ أَمامِ ذَلِكَ السِّرْبِ الضَّخْمِ ، فَتَشَبَّثَ عَلاءُ الدّين بِذَيْلِها وَسِرْبُ الأَسْماكِ يَصْدِمُهُ مِنْ كُلِّ اتِّجاهٍ . وَأَفْلَتَ ذَيْلُ السُّلَحْفاةِ مِنْ بَيْنِ قَبْضَتَيْ عَلاءِ الدّين ، فَقَدْ كانَ جَيْشُ السَّمَكِ كَثيفاً وَهُجومُهُ عَنيفاً ؛ مِمّا يَجْعَلُ فُرْصَةَ الهَرَبِ تَضيقُ وَتَضيقُ ، وَتَقْطَعُ عَلى السُّلَحْفاةِ الطَّريقَ . وَأَخَذَ يَغوصُ وَيَغوصُ وَالسَّمَكُ يَدْفَعُهُ لِلأَمامِ ، فَصَرَخَ عَلاءُ الدّين مُسْتَنْجِداً بِعَروسِ البَحْرِ الَّتي خَفَّتْ لِنَجْدَتِهِ ، وَمَكَّنَتْهُ مِنَ التَّشَبُّثِ بِذَيْلِها جَيِّداً ، وَراحَتْ تَخْتَرِقُ سِرْبَ السَّمَكِ حَتّى ابْتَعَدَتْ عَنْهُ تَماماً ، فَتَوَقَّفَتْ لاهِثَةً ، وَراحَ عَلاءُ الدّين يَشْكُرُ لَها صَنيعَها الفِدائِيَّ . وَتَدافَعَ سِرْبُ السَّمَكِ الهائِلُ في سِباحَتِهِ الجَماعِيَّةِ . وَتَساءَلَ التِّلْميذُ عَلاءُ الدّين بِدَهْشَةٍ : « أَيْنَ يَمْضي هَذا السَّمَكُ ؟ وَلِماذا يَسْبَحُ في جَماعاتٍ هائِلَةٍ ؟ »

رَدَّتْ عَروسُ البَحْرِ : « هَذا مَوْسِمُ الهِجْرَةِ ، فَفي هَذا المَوْعِدِ يُهاجِرُ هَذا النَّوْعُ مِنَ الأَسْماكِ وَيُسَمّى سَمَكَ سُلَيْمانَ . إِنَّهُ يَتَّجِهُ

إلى الماءِ العَذْبِ في رِحْلَةٍ جَماعِيَّةٍ ، مِثْلَما تَفْعَلُ بَعْضُ الطُّيورِ عِنْدَما تُهاجِرُ مِنَ المَناطِقِ البارِدَةِ إلى المَناطِقِ الحارَّةِ والدّافِئَةِ ، وَتَقْطَعُ آلافَ الكيلومِتْراتِ فَوْقَ الأَرْضِ .»

« لِماذا يُهاجِرُ السَّمَكُ ؟»

« إِنَّهُ يُهاجِرُ بَحْثًا عَنِ الغِذاءِ الوَفيرِ أَوْ لِوَضْعِ البَيْضِ ، ثُمَّ يَعودُ ما تَبَقّى مِنْهُ حَيًّا مِنْ هَذا الطَّريقِ الَّذي جاءَ مِنْهُ في وَقْتٍ مُحَدَّدٍ ، لا يَحيدُ عَنْهُ .»

« وَكَيْفَ يَعْرِفُ السَّمَكُ طَريقَهُ خِلالَ هَذِهِ المَسافاتِ الطَّويلَةِ ؟»

« هَذا ما لَمْ يَعْلَمْهُ أَحَدٌ حَتّى الآنَ . إِنَّهُ سِرٌّ مِنْ أَسْرارِ الطَّبيعَةِ !»

وَ واصَلَ الاِثْنانِ مُهِمَّتَهُما في البَحْثِ ، وَعَروسُ البَحْرِ تَسْأَلُ كُلَّ ما يُصادِفُهُما مِنْ أَسْماكٍ عَنْ قَمَرِ الدّينِ ، وَلا أَحَدَ يُجيبُها الإِجابَةَ الشّافِيَةَ الَّتي يَنْتَظِرانِها بِصَبْرٍ نافِدٍ .

وَأَخيرًا تَجاوَزا البَحْرَ إلى المُحيطِ الأَطْلَسِيِّ ثاني مُحيطاتِ العالَمِ حَجْمًا . وَأَخْبَرَتْ عَروسُ البَحْرِ عَلاءَ الدّينِ بِوُصولِهِما إلى المُحيطِ ، فَسَأَلَها مُسْتَفْسِرًا : « ما الفَرْقُ بَيْنَ البَحْرِ وَالمُحيطِ وَالنَّهْرِ ؟»

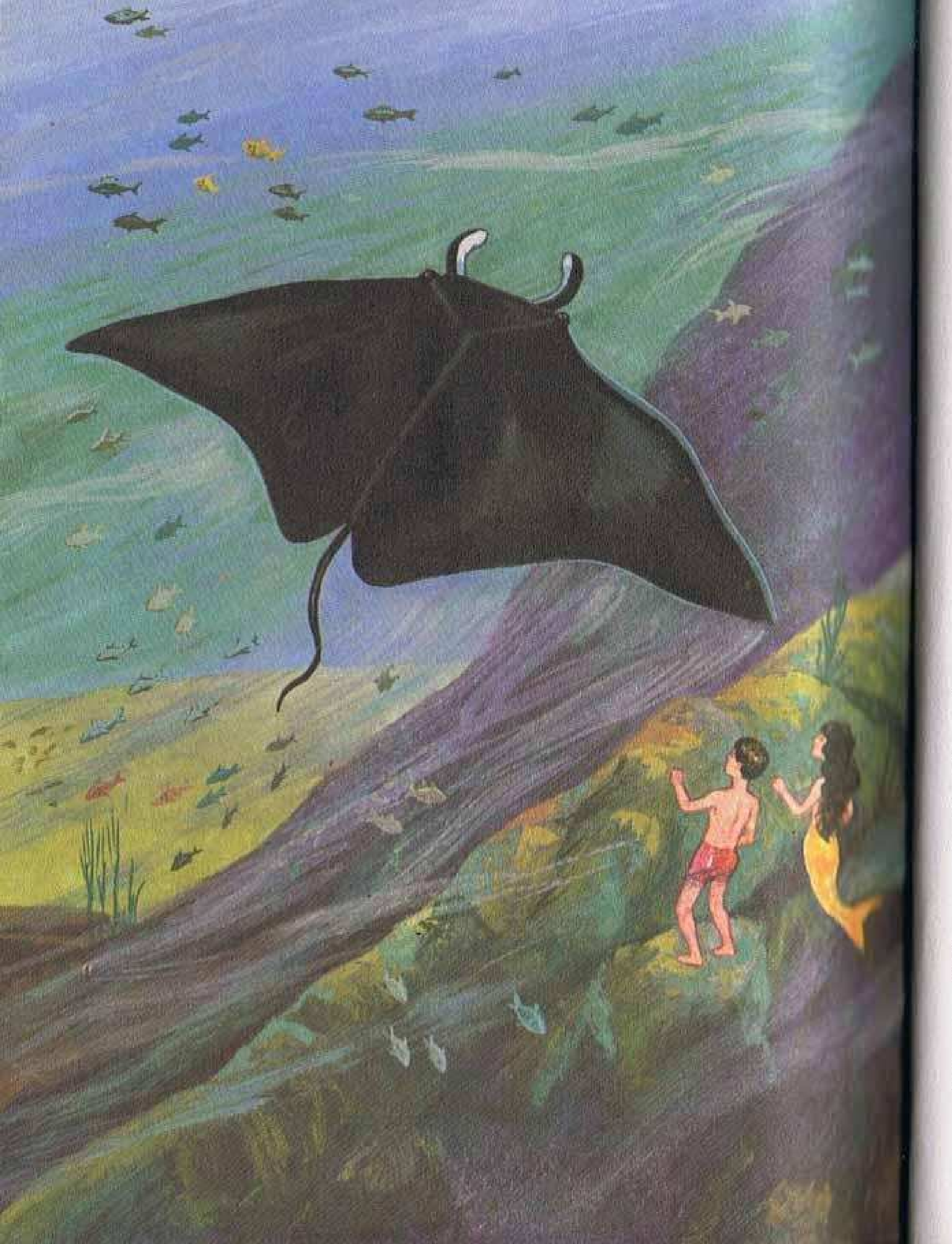
رَدَّتْ عَروسُ البَحْرِ : « إِنَّ المُحيطَ أَضْخَمُ وَأَكْبَرُ مِنَ البَحْرِ

عَشَراتِ المَرّاتِ ، أَمّا النَّهْرُ فَيَخْتَلِفُ عَنْهُما في أَنَّ ماءَهُ عَذْبٌ بِعَكْسِ ماءِ البَحْرِ وَالمُحيطِ فَهُوَ مِلْحٌ أُجاجٌ ، كَما أَنَّ الأَنْهارَ تَحْصُلُ عَلى مائِها مِنْ سُقوطِ الأَمْطارِ فَوْقَ مَنابِعِها ، وَالنَّهْرُ يَصُبُّ في البَحْرِ ، وَلَكِنَّ البَحْرَ لا يَصُبُّ في النَّهْرِ .» وَاسْتَمَرَّ الاِثْنانِ يَسْبَحانِ داخِلَ المُحيطِ وَقْتًا طَويلاً ، وَهُما يُواصِلانِ بَحْثَهُما عَنْ قَمَرِ الدّينِ .

وَفَجْأَةً ظَهَرَ لَهُما حوتٌ ضَخْمُ الحَجْمِ كَأَنَّهُ جَبَلٌ تَحْتَ الماءِ ، وَقَدْ فَتَحَ فَمَهُ الواسِعَ المُرْعِبَ الَّذي بَدا كالكَهْفِ المُظْلِمِ الفَسيحِ . وَكادَ الحوتُ يَبْتَلِعُ عَلاءَ الدّينِ ، الَّذي تَراجَعَ مَذْعورًا ، وَأَخَذَ يَسْبَحُ بِكُلِّ ما أوتِيَ مِنْ قُوَّةٍ ، عَسى أَنْ يَحْتَمِيَ بِأَحَدِ الصُّخورِ أَوْ إِحْدى القِمَمِ العالِيَةِ لِجِبالِ البَحْرِ الغاطِسَةِ ، غَيْرَ أَنَّهُ نَجا هُوَ وَعَروسُ البَحْرِ في آخِرِ لَحْظَةٍ .

وَأَخَذا يَسْبَحانِ مُبْتَعِدَيْنِ بِأَقْصى سُرْعَتِهِما ، وَهُما يَبْحَثانِ وَيَسْأَلانِ كُلَّ ما يُصادِفُهُما مِنْ مَخْلوقاتٍ تَحْتَ الماءِ عَنْ قَمَرِ الدّينِ ، بِدونِ أَنْ يَحْصُلا عَلى أَيَّةِ إِجابَةٍ عَنْ سُؤالِهِما .

وَفَجْأَةً بَرَزَ لَهُما مِنْ أَعْماقِ المُحيطِ كائِنٌ بَشِعُ الخِلْقَةِ مُخيفُ الهَيْئَةِ غَريبُ التَّكْوينِ ؛ فَقَدْ كانَ يُشْبِهُ الخُفّاشَ الطّائِرَ ، وَلَكِنَّهُ كانَ أَضْخَمَ حَجْمًا مِئاتِ المَرّاتِ ؛ فَطولُهُ يَصِلُ إلى خَمْسَةِ أَمْتارٍ ، وَلَهُ



ما يُشْبِهُ الأجْنحَةَ الجِلْدِيَّةَ عَلى جانِبَيْهِ ، يَصِلُ طُولُها إلى سِتَّةِ أمْتارٍ ، وَلَهُ ذَيْلٌ يُشْبِهُ السَّوْطَ ، كَما كانَ لَهُ رأسٌ عَريضٌ مُسَطَّحٌ بِلا رَقَبَةٍ ، وَلَهُ عَيْنانِ واسِعَتانِ وَأمامَهُما زَعْنَفَتانِ يَجْرُفُ بِهِما الأسْماكَ الصَّغيرَةَ إلى فَمِهِ الواسِعِ . وَكانَ عَلاءُ الدّينِ يُراقِبُ المَخْلوقَ العَجيبَ وَهُوَ يَقْتَرِبُ مِنْهُ في سُرْعَةٍ ؛ فَصاحَتْ عَروسُ البَحْرِ مُحَذِّرَةً إيّاهُ : « احْذَرْ هَذا الكائِنَ المُتَوَحِّشَ ، يا عَلاءَ الدّينِ ! »

أفاقَ عَلاءُ الدّينِ مِنْ ذُهولِهِ قَبْلَ أنْ تُمْسِكَ بِهِ زَعْنَفَتا المَخلوقِ اللَّتانِ تُشْبِهانِ مِشْبَكاً ضَخْماً ، وَسَبَحَ عَلاءُ الدّينِ وَعَروسُ البَحْرِ مُسْرِعَيْنِ لِيَخْتَبِئا خَلْفَ بَعْضِ الصُّخورِ .

تَساءَلَ عَلاءُ الدّينِ مُرْتَعِباً : « ما ... ما هَذا المَخْلوقُ ؟ »

أجابَتْ عَروسُ البَحْرِ : « إنَّهُ شَيْطانُ البَحْرِ ، وَهُوَ عِنْدَما يَتَشَبَّثُ بِأيِّ شَيْءٍ ، وَيُمْسِكُهُ بِزَعْنَفَتَيْهِ لا يَتْرُكُهُ أبَداً ، وَلَوْ كانَ مِرْساةَ سَفينَةٍ فَإنَّهُ سَيَهْبِطُ بِها إلى الأعْماقِ ، وَيُغْرِقُ السَّفينَةَ بِما فيها وَمَنْ عَلَيْها ، وَالإنْسانُ الَّذي يَقَعُ فَريسَةً لَهُ إنَّما هُوَ إنْسانٌ سَيِّئُ الحَظِّ ! »

وَفَجْأةً شَقَّ شَيْطانُ البَحْرِ سَطْحَ الماءِ لِيَقْفِزَ في الهَواءِ عَلى مَسافَةٍ عالِيَةٍ ، كَأنَّهُ يَطيرُ في الهَواءِ ، ثُمَّ عادَ لِيَسْقُطَ في الماءِ ثانِيَةً . وَسَرْعانَ ما تَجَمَّعَتْ مَجْموعَةٌ مِنْ شَياطينِ البَحْرِ لِتَفْعَلَ الشَّيْءَ

نَفْسَهُ ، فَتَقْفِزَ في الهواءِ باسِطَةً أجْنِحَتَها الجِلْدِيَّةَ ، وَكانَتْ تُحَلِّقُ قليلاً في الهواءِ تَحْليقاً مُثيراً قَبْلَ أنْ تَسْقُطَ في الماءِ ثانِيَةً .

وَبِرُعْبٍ شَديدٍ أسْرَعَ عَلاءُ الدِّين وَعَروسُ البَحْرِ يَبْتَعِدانِ عَنْ تِلْكَ المَخْلوقاتِ البَحْرِيَّةِ العَجيبَةِ . وَاقْتَرَبا مِنْ جَزيرَةٍ بُرْكانِيَّةٍ هِيَ عِبارَةٌ عَنْ جَبَلٍ تَبْرُزُ قِمَّتُهُ فَوْقَ سَطْحِ المُحيطِ ، وَتُحيطُ بِها المِياهُ مِنْ كُلِّ اتِّجاهٍ . وَاسْتَلْقى الاثْنانِ لاهِثَيْنِ فَوْقَ سَطْحِ الجَزيرَةِ ، وَهُما يَحْمَدانِ اللَّهَ لِنَجاتِهِما مِنْ شَرِّ شَيْطانِ البَحْرِ .

وَحَدَّقَ عَلاءُ الدِّين إلى طائِرٍ كَبيرٍ ذي أقْدامٍ مُكَفَّفَةٍ وَهُوَ يُحَلِّقُ فَوْقَ الماءِ ، بِدونِ أنْ يُحَرِّكَ جَناحَيْهِ ، كَأنَّما يَتَوَلّى الهَواءُ وَحْدَهُ حَمْلَ ريشِهِ ، رَغْمَ أنَّ طولَ جَناحَيْهِ يَصِلُ إلى ثَلاثَةِ أمْتارٍ ، فَسَألَ عَلاءُ الدِّين عَروسَ البَحْرِ عَنْهُ ، فَقالَتْ : « إنَّهُ طائِرُ القَطْرَسِ ، وَهُوَ طائِرٌ مائِيٌّ شَرِسٌ ، قَدْ يُحَلِّقُ في السَّماءِ عِدَّةَ أيّامٍ مُتَواصِلَةٍ ، وَيُرافِقُ السُّفُنَ في إبْحارِها ، وَهُوَ لا يُحِبُّ اليابِسَةَ وَلا يَرْتادُها إلّا إذا كانَ مُضْطَرّاً لِيَضَعَ بَيْضَهُ وَيُرَبّي صِغارَهُ . »

وَأشارَتْ إلى طائِرٍ آخَرَ ذي لَوْنٍ داكِنٍ وَلَهُ مِنْقارٌ كَبيرٌ وَيُشْبِهُ الغُرابَ ، وَقالَتْ : « هذا هُوَ غُرابُ البَحْرِ . إنَّهُ مِنْ أكْثَرِ طُيورِ البَحْرِ مَهارَةً وَتَحْليقاً بَيْنَ المَوْجِ وَالسَّحابِ . »

وَكانَ الطّائِرُ يَتَأهَّبُ لِلطَّيَرانِ ، فَحَلَّقَ في السَّماءِ فَوْقَ الماءِ وَهُوَ يُحَدِّقُ إلى صَفْحَةِ الماءِ ، وَفَجْأةً انْطَلَقَ كالقَذيفَةِ نَحْوَ الماءِ وَغاصَ بِداخِلِهِ مَسافَةَ ثَلاثينَ مِتْراً ، وَخَرَجَ مِنَ النّاحِيَةِ الأخْرى وَفي مِنْقارِهِ سَمَكَةٌ كَبيرَةٌ .

تَعَجَّبَ عَلاءُ الدِّين لِما فَعَلَهُ الطّائِرُ ، ثُمَّ تَذَكَّرَ ما حَدَثَ لأخْتِهِ قَمَرِ الدِّين ؛ فَعاوَدَهُ الكَدَرُ وَالحُزْنُ وَفاضَتْ عَيْناهُ بِالدُّموعِ ، وَلاحَظَتْ عَروسُ البَحْرِ ذَلِكَ فَقالَتْ مُواسِيَةً : « سَوْفَ نَعْثُرُ عَلى قَمَرِ الدِّين ، يا عَلاءَ الدِّين ، فَتَشَبَّثْ بِالأمَلِ . »

وَفَجْأةً هَبَّتْ رِياحٌ قَوِيَّةٌ أصابَتْ عَلاءَ الدِّين بِرِعْدَةٍ ، وَعَلا المَوْجُ عَلى شاطِئِ الجَزيرَةِ ، وَزادَتْ سُرْعَةُ الرِّياحِ ، فَأخَذَ عَلاءُ الدِّين يَرْتَجِفُ مِنَ البَرْدِ وَهُوَ يَقولُ : « مِنْ أيْنَ تَأتي هَذِهِ الرِّياحُ القَوِيَّةُ ؟ »

رَدَّتْ عَروسُ البَحْرِ وَهِيَ تُحاوِلُ إشْعالَ بَعْضِ الأعْشابِ الجافَّةِ بَعيداً عَنِ الرِّياحِ : « أنْتَ تَعْلَمُ ، يا عَلاءَ الدِّين ، أنَّ الأرْضَ تَدورُ حَوْلَ نَفْسِها ، وَلَكِنَّ الهَواءَ لا يَدورُ حَوْلَ نَفْسِهِ بِنَفْسِ سُرْعَةِ دَورانِ الأرْضِ لأنَّهُ أخَفُّ مِنْها ؛ وَلِذَلِكَ تَحْدُثُ تَحَرُّكاتُ الهَواءِ الَّتي نُسَمّيها رِياحاً ، وَكُلَّما اشْتَدَّتِ الرِّياحُ زادَتِ الأمْواجُ وَعَلَتْ عُلُوّاً كَبيراً ، كَأنَّها تَفورُ . »

« وما هَذِهِ الجزيرَةُ ؟»

« إنَّها جزيرَةٌ بُرْكانيةٌ ، وَهِيَ تَنشأ عِندما تَنْدفعُ الحُمَمُ مِنْ قَلْبِ أحَدِ الجبالِ البُرْكانيةِ تَحْتَ سَطْحِ الماءِ ، وَتَخْرُجُ هَذِهِ الحُمَمُ إلى سَطْحِ الماءِ ، وَعِنْدَما تَبْرُدُ فَإنّها تُكَوِّنُ ما يُشْبِهُ الجزيرَةَ .

« وَثَمَّةَ نَوْعٌ آخرُ مِنَ الجُزُرِ يُسَمَّى الجُزُرَ المرْجانيَّةَ ، وَهُوَ يَنْشأُ مِنْ تَراكُمِ كائناتٍ بَحْرِيَّةٍ تُسمّى المَرْجانيّاتِ ، وَتَتَجَمَّعُ مَعَ بَعْضِها عِنْدَ مَوْتِها وَتَتَحَوَّلُ إلى صُخورٍ ، وَمَعَ مُرورِ الأحْقابِ تُكَوِّنُ جَزيرَةً مَرْجانِيَّةً ، وَقَدْ تَحْمِلُ لَها الرِّياحُ وَالأمْواجُ بَعْضَ البُذورِ وَالحَشَراتِ الَّتي تَكْفي لِنُمُوِّ الحَياةِ فَوْقَها .»

وَنَجَحَتْ عروسُ البَحْرِ في إشْعالِ النّارِ ، فَتَحَلَّقَ عَلاءُ الدِّين حَوْلَها ، وَقَدْ بَدَأَ يَشْعُرُ بِبَعْضِ الدِّفْءِ . وَفَجْأةً دَوّى صَوْتٌ هائلٌ مِنْ حَوْلِهِما ، وَانْفَجَرَتْ قِمَّةُ جَبَلِ الجَزيرَةِ ، وَأَخَذَ يَقْذِفُ بِالحُمَمِ في كُلِّ اتِّجاهٍ .

صَرَخَتْ عروسُ البَحْرِ مَذْعورَةً : « حاذِرْ يا عَلاءَ الدِّين ؛ لَقَدْ ثارَ البُرْكانُ !»

وَأَسْرَعَتْ تَقْفِزُ في الماءِ وَخَلْفَها عَلاءُ الدِّين ، وَشَرَعا يَسْبَحانِ بِأَقْصى طاقَتِهِما ، وَالحُمَمُ المُتَفَجِّرَةُ مِنْ قِمَّةِ جَبَلِ الجَزيرَةِ تَنْطَلِقُ مِنْ

خَلْفِهِما بِلَوْنٍ مُتَوَهِّجٍ كالنّارِ المُشْتَعِلَةِ . وَاشْتَعَلَتِ المِياهُ حَوْلَهُما ، وَصارَتْ تَفورُ ، وَهُما يُجاهِدانِ لِيَبْتَعِدا بِأَسْرَعِ ما يَسْتَطيعانِ ، وَلَكِنَّ الحُمَمَ المُشْتَعِلَةَ المُنْصَبَّةَ في الماءِ حاصَرَتْهُما مِنْ كُلِّ اتِّجاهٍ . وَأَخَذَتِ الأمْواجُ تَصْطَخِبُ وَتَثورُ بِعُنْفٍ ، فَصَرَخَ عَلاءُ الدِّين وَهُوَ يَبْكي : « إنَّني لا أَسْتَطيعُ المُقاوَمَةَ . سَوْفَ أَهْلِكُ .»

وَكانَتْ عروسُ البَحْرِ تُجاهِدُ أيْضاً لِلْخُروجِ مِنْ تِلْكَ المِنْطَقَةِ المُشْتَعِلَةِ الهائِجَةِ الأمْواجِ ، حَتّى خارَتْ قُواها وَكادَتْ تَسْتَسْلِمُ لِلْحُمَمِ المُنْصَهِرَةِ . وَفَجْأةً بَرَزَ مِنْ جَوْفِ الماءِ حَوْلَهُما بِسُرْعَةٍ كَبيرَةٍ عَدَدٌ مِنَ الدَّرافيلِ ، وَراحَتْ تَصيحُ بِأَصْواتِها الرَّفيعَةِ الحادَّةِ كَأَنَّها تَدْعوهُما إلى امْتِطاءِ ظُهورِها . وَأَسْرَعَ عَلاءُ الدِّين وَعَروسُ البَحْرِ إلى امْتِطاءِ ظُهورِ الدَّرافيلِ ، الَّتي غاصَتْ بِهِما في سُرْعَةٍ وَرَشاقَةٍ ، تُبْعِدُهُما عَنِ الأمْواجِ الصّاخِبَةِ إلى جَوْفِ الماءِ . وَبَعْدَ أنِ ابْتَعَدَتْ بِهِما الدَّرافيلُ سَبَحَتْ إلى الشّاطِئِ ، فَقَفَزَ عَلاءُ الدِّين وَعَروسُ البَحْرِ مِنْ فَوْقِ ظُهورِها إلى الشّاطِئِ ، وَراحا يُرَبِّتانِ عَلَيْها ، فَأَطْلَقَتِ الدَّرافيلُ أَصْواتَها تَعْبيراً عَنْ سَعادَتِها ، ثُمَّ أَسْرَعَتْ مُبْتَعِدَةً .

وَراقَبَتْ عَروسُ البَحْرِ الدَّرافيلَ بِسُرورٍ ، ثُمَّ قالَتْ : « كَمْ أَنْقَذَتِ الدَّرافيلُ مِنْ غَرْقى ، وَأَرْشَدَتْ سُفُناً ضالَّةً وَتائِهَةً إلى الشّاطِئِ ! إنَّها رَفيقٌ يُقَدِّمُ خِدْماتِهِ بِلا ثَمَنٍ !»

عقَّبَ علاءُ الدِّين : « لقَدْ أنْقذْتنا في الوَقْتِ المُناسِبِ .»

وَبعْدَ أنِ اسْتراحَ علاءُ الدِّين وَعُروسُ البَحْرِ بَعْضَ الوَقْتِ على الشّاطِئ ، وَتَناوَلا قَليلاً مِنَ الطَّعامِ وَالفاكِهَةِ لِيَسْتَرِدّا قُوَّتَهُما وَنَشاطَهُما ، عاوَدا الغَوْصَ إلى الأعْماقِ . وَكُلَّما غاصا لأسْفَلُ زادَتْ بُرودَةُ الماءِ . وَكانَ علاءُ الدِّين يَعْلَمُ - كَما أخْبَرَتْهُ عَروسُ البَحْرِ أنَّهُ كُلَّما تَوَغَّلَ في قاعِ المُحيطِ ازْدادَ الماءُ بُرودَةً .

وَلكِنْ فَجْأَةً تَغَيَّرَتْ دَرَجَةُ حَرارَةِ الماءِ وَصارَ أكْثَرَ دِفْئًا ؛ فَتَحَيَّرَ علاءُ الدِّين وَاسْتَفْسَرَ مِنْ عَروسِ البَحْرِ عَنْ سِرِّ تَغَيُّرِ دَرَجَةِ حَرارَةِ الماءِ المُفاجِئَةِ ، فَقالَتْ لَهُ : « إنَّ الماءَ الَّذي تَسْبَحُ فيهِ الآنَ ، يا علاءَ الدِّين ، لَيْسَ ماءَ المُحيطِ ، بَلْ هُوَ ماءُ نَهْرٍ .»

دَهِشَ علاءُ الدِّين وَسَألَ عَروسَ البَحْرِ : « وَلكِنَّنا لا نَزالُ في قاعِ المُحيطِ فَمِنْ أيْنَ أتى ماءُ النَّهْرِ الدّافِئُ ؟»

رَدَّتْ عَروسُ البَحْرِ : « أ تَظُنُّ أنَّ الأنْهارَ لا توجَدُ إلّا عَلى اليابِسَةِ ؟ لا يا صَديقي ، فَكَما أنَّ أعْظَمَ جِبالِ العالَمِ توجَدُ غارِقَةً في المُحيطاتِ ، فَإنَّ أكْبَرَ أنْهارِ العالَمِ تَنْسابُ - أيْضًا - بِداخِلِ المُحيطاتِ . إنَّ هَذِهِ الأنْهارَ المَوْجودَةَ بِداخِلِ المُحيطاتِ لَيْسَ لَها بِدايَةٌ أوْ نِهايَةٌ ، وَدَرَجَةُ حَرارَتِها تَخْتَلِفُ دائِمًا عَنْ دَرَجَةِ حَرارَةِ ماءِ

المُحيطِ . وَهَذِهِ الأنْهارُ تَكونُ أحْيانًا ذا لَوْنٍ مُخْتَلِفٍ عَنْ لَوْنِ ماءِ المُحيطِ .»

اسْتَمَعَ علاءُ الدِّين لِما قالَتْهُ عَروسُ البَحْرِ ذاهِلاً ، وَهُوَ لا يَكادُ يُصَدِّقُ ما سَمِعَتْهُ أذُناهُ ، وَتَأمَّلَ الماءَ الدّافِئَ الَّذي يَسْبَحُ فيهِ فاكْتَشَفَ أنَّ لَوْنَهُ يَخْتَلِفُ بِالفِعْلِ عَنْ لَوْنِ بَقِيَّةِ ماءِ المُحيطِ ؛ فَقَدْ كانَ يَميلُ قَليلاً لِلَّوْنِ الأحْمَرِ ، بِعَكْسِ ماءِ المُحيطِ الأزْرَقِ .

وَأرْدَفَتْ عَروسُ البَحْرِ : « أمّا هَذِهِ الأنْهارُ العَجيبَةُ فَإنَّ ما يُحَرِّكُها داخِلَ المُحيطاتِ هُوَ قُوَّةُ دَوَرانِ الأرْضِ حَوْلَ مِحْوَرِها ، وَتَسْخينُ الشَّمْسِ لِلْهَواءِ وَالماءِ بِدَرَجَةٍ غَيْرِ مُتَكافِئَةٍ ، وَكَذَلِكَ اعْتِراضُ حُدودِ القارّاتِ وَتَعاريجِها لِمَجْرى الأنْهارِ . كُلُّ هَذِهِ الأشْياءِ تُحافِظُ عَلى جَرَيانِ مِياهِ الأنْهارِ بِدونِ أنْ تَخْتَلِطَ أوْ تَنْسابَ مُمْتَزِجَةً بِماءِ المُحيطِ .»

هَزَّ علاءُ الدِّين رَأسَهُ عَجَبًا ، ثُمَّ طَفا الاثْنانِ فَوْقَ سَطْحِ الماءِ الأزْرَقِ الصّافي ، الَّذي يَبْدو كَأنَّهُ لا نِهايَةَ لَهُ .

كانَ وَجْهُ الماءِ ساكِنًا حَوْلَهُما ، لا رِياحَ أوْ أمْواجَ . وَقالَ علاءُ الدِّين مُبْتَسِمًا : « إنَّ الطَّقْسَ جِدُّ جَميلٍ في هَذا المَكانِ . أ لَيْسَ يُغْري بِالبَقاءِ فيهِ ؟ ما رَأيُكَ لَوْ قَضَيْنا هُنا بَعْضَ الوَقْتِ ، نَلْهو

وَنلْعبُ . إنّها ...»

وما كادَ يُتِمُّ عِبارَتَه حتّى دَوّى الرَّعْدُ فَوْقَهُما فَجْأةً ، وَانْهَمَرَ مَطَرٌ غَزيرٌ ، وَأَخَذَتِ الأَمْواجُ تَصْطَخِبُ وَتَعْلو وَتَتَصادَمُ في جُنونٍ ، وَانْقَلَبَ حالُ المُحيطِ فَصارَ هائِجًا ، وَصَرَخَتْ عَروسُ البَحْرِ في عَلاءِ الدِّين : « تَشَبَّثْ بِذَيْلي ، يا عَلاءَ الدِّين ، حَتّى لا تَغْرَقَ .»

وَلكِنَّ تَحْذيرَها جاءَ مُتَأَخِّرًا ، فَقَدْ حَمَلَهُ المَوْجُ بَعيدًا ، وَراحَ يَضْرِبُهُ بِعُنْفٍ ، وَأَخَذَتِ المِياهُ الثّائِرَةُ تَقْذِفُ بِهِ في مُخْتَلِفِ الاتِّجاهاتِ . وَصَرَخَ عَلاءُ الدِّين صَرَخاتِ رُعْبٍ مُدَوِّيَةً مُناديًا عَروسَ البَحْرِ ، وَلكِنَّ صَرَخاتِهِ ذَهَبَتْ أَدْراجَ الرِّياحِ . وَأَنْهَكَتْهُ مُقاوَمَةُ الأَمْواجِ وَالعَواصِفِ فَاسْتَسْلَمَ لَها وَأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ يائِسًا ، وَقَدْ أَدْرَكَ أَنَّ هذِهِ هِيَ النِّهايَةُ .

لَقَدْ حالَتِ الظُّروفُ دونَ أَنْ يُكْمِلَ عِبارَتَهُ الأَخيرَةَ الَّتي كانَ يَوَدُّ أَنْ يَقولَ فيها إِنَّها فُرْصَةٌ ؛ فَعَلى المَرْءِ أَنْ يَدْرُسَ ما أَمامَهُ جَيِّدًا قَبْلَ أَنْ يَصِفَهُ بِأَنَّهُ فُرْصَةٌ أَوْ غُصَّةٌ .

لَمْ يَدْرِ عَلاءُ الدِّين كَمْ مِنَ الوَقْتِ مَرَّ عِنْدَما فَتَحَ عَيْنَيْهِ ، وَكانَ أَوَّلَ ما أَحَسَّ بِهِ هُوَ بُرودَةٌ قاتِلَةٌ تَسْري في جَسَدِهِ . إِنَّ إِحْساسَهُ بِالبَرْدِ القارِسِ هُوَ الَّذي جَعَلَهُ يُفيقُ وَلا يَسْتَطيعُ أَن يَفْتَحَ عَيْنَيْهِ مَرَّةً

أُخْرى . وَأَصابَهُ العَجَبُ العُجابُ عِنْدَما رَأى نَفْسَهُ مُمَدَّدًا فَوْقَ الأَرْضِ وَهُوَ يَرى كُلَّ شَيْءٍ حَوْلَهُ بِلَوْنِ الثَّلْجِ ، بَلْ إِنَّ ما يَرْقُدُ فَوْقَهُ وَظَنَّهُ أَرْضًا لَمْ يَكُنْ سِوى جَليدٍ يَمْتَدُّ إِلى مَرْمى البَصَرِ . وَأَصابَ عَلاءَ الدِّين ذُهولٌ عَميقٌ وَهُوَ لا يَدْري أَيْنَ هُوَ ؛ فَلَمْ تَكُنْ عَروسُ البَحْرِ بِجِوارِهِ لِتُخْبِرَهُ بِأَنَّ التَّيّارَ حَمَلَهُ إِلى القُطْبِ الشَّماليِّ المُتَجَمِّدِ ، حَيْثُ لا أَرْضَ هُناكَ ، بَلْ جَليدٌ يُغَطّي كُلَّ شَيْءٍ حَوْلَهُ ، كَما يُغَطّي كُلَّ القِمَمِ وَالأَماكِنِ العالِيَةِ في العالَمِ .

قالَ عَلاءُ الدِّين لِنَفْسِهِ مُتَعَجِّبًا : « هَلْ ما أَراهُ الآنَ هُوَ قِمَّةُ العالَمِ ؟» وَتَساءَلَ كَيْفَ وَصَلَ إِلى ذلِكَ المَكانِ . وَتَذَكَّرَ ما حَدَثَ لَهُ مِن اخْتِطافِ جِنِّيَّةِ البَحْرِ لِأُخْتِهِ قَمَرِ الدِّين ، وَعَروسِ البَحْرِ الَّتي رافَقَتْهُ في رِحْلَةِ البَحْثِ عَنْ أُخْتِهِ ، ثُمَّ هُبوبِ العاصِفَةِ الَّتي صادَفَتْهُما وَفَرَّقَتْهُما ، وَأَشْياءَ كَثيرَةٍ أُخْرى .

وَعِنْدَما تَذَكَّرَ عَلاءُ الدِّين ما حَدَثَ لَهُ ؛ نَهَضَ مِنْ فَوْرِهِ ، وَهُوَ يُحِسُّ بِبَرْدٍ قارِسٍ ، وَلكِنَّهُ تَغَلَّبَ عَلى إِحْساسِهِ ، وَأَخَذَ يَسْتَكْشِفُ المَكانَ حَوْلَهُ . لَمْ تَكُنْ ثَمَّةَ أَشْجارٌ وَلا مَزْروعاتٌ ، وَشاهَدَ عَلى البُعْدِ مَجْموعَةً مِنَ الدِّبَبَةِ ذاتِ الفِراءِ الأَبْيَضِ بِأَحْجامِها الضَّخْمَةِ ، وَمَجْموعاتٍ مِنْ سِباعِ البَحْرِ الَّتي يَصِلُ طولُ الواحِدِ مِنْها إِلى مِترٍ وَنِصْفِ المِترِ ، وَهِيَ تَفْتَحُ أَفْواهَها ، وَتَزْأَرُ زَئيرًا عالِيًا ، وَقَدْ بَرَزَتْ

أَنْيابُها السُّفْلِيَّةُ .

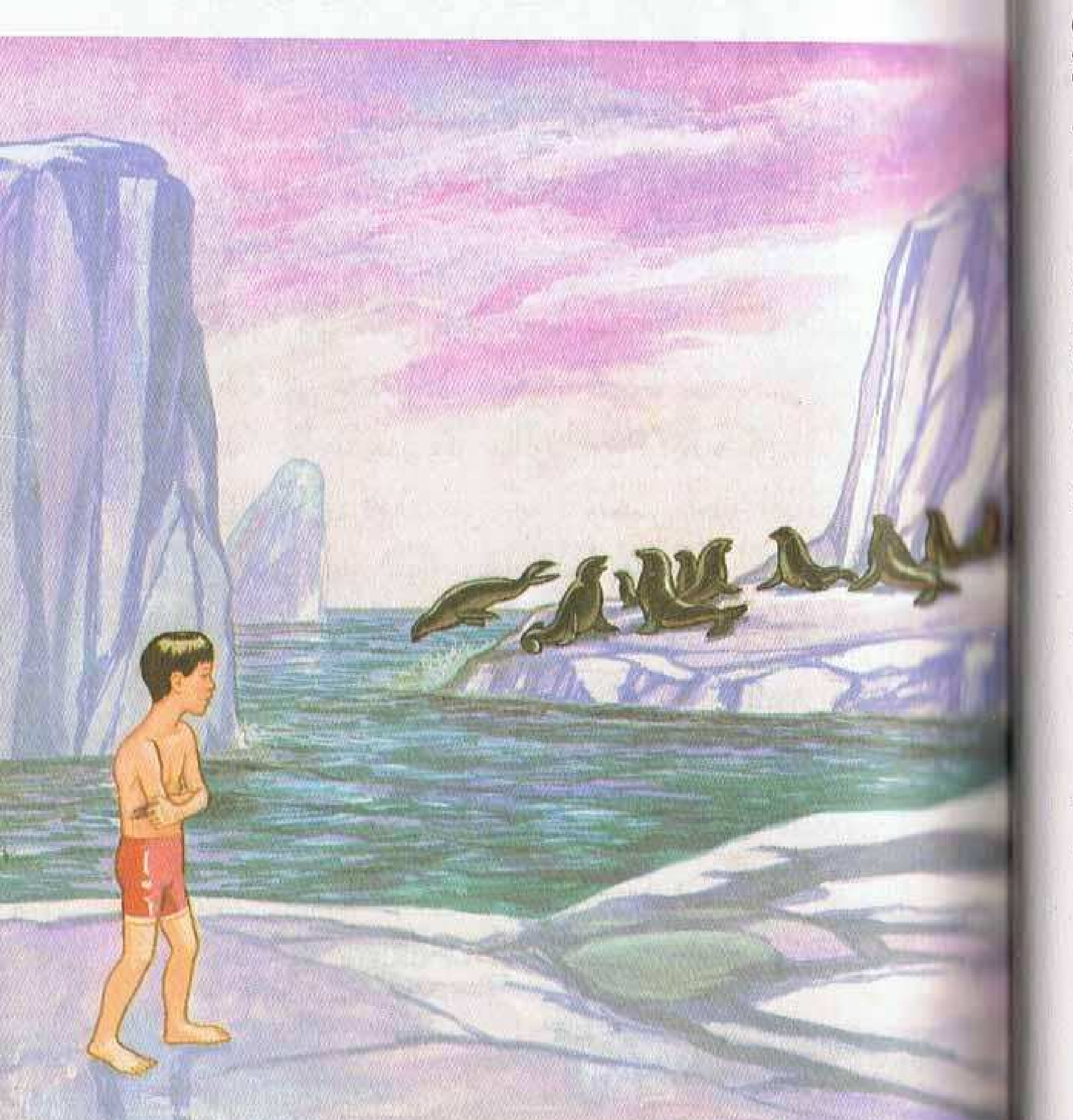
وَحَدَّقَ عَلاءُ الدِّين لَحَظاتٍ إلى سِباعِ البَحْرِ ، ثُمَّ قالَ : « يا لَلْحَيَواناتِ العَجيبَةِ المَنْظَرِ !» وَ واصَلَ سَيْرَهُ وَقَدْ تَضاءَلَ أَمَلُهُ في العُثورِ عَلى أُخْتِهِ . وَلَمْ يَسْتَطِعْ عَلاءُ الدِّين أَنْ يُحَدِّدَ الوَقْتَ ، إِنْ كانَ صَباحاً أَوْ ظُهْراً أَوْ لَيْلاً ، فَقَدْ كانَتِ السَّماءُ شِبْهَ مُعْتِمَةٍ بِلا شَمْسٍ ، وَإِنَّما يُنيرُ المَكانَ حَوْلَهُ ضَوْءٌ شاحِبٌ كَأَنَّهُ ضَوْءُ شَمْعَةٍ .

وَاسْتَمَرَّ عَلاءُ الدِّين سائِراً ؛ وَلَمْ يُصادِفْ إِنْساناً ، وَلَفَتَ انْتِباهَهُ مَجْموعَةٌ مِنْ طائِرِ البِطْريقِ عَلى ضِفَّةِ أَحَدِ الأَنْهارِ ، تِلْكَ الَّتي لَمْ تَتَجَمَّدْ تَماماً ، وَلكِنَّها لِخَصائِصِها توشِكُ أَنْ تَتَجَمَّدَ ، وَطُيورُ البِطْريقِ تَتَصايَحُ فيما بَيْنَها ، بِأَحْجامِها الضَّخْمَةِ وَأَجْنِحَتِها الَّتي فَقَدَتِ القُدْرَةَ عَلى الطَّيَرانِ ؛ لِثِقَلِ الأَجْسادِ وَصِغَرِ حَجْمِ الأَجْنِحَةِ .

وَأَخَذَ عَلاءُ الدِّين يَصيحُ بِأَعْلى صَوْتِهِ في هَذا العالَمِ المُتَجَمِّدِ : « قَمَرَ الدِّين ! يا قَمَرَ الدِّين ! أَيْنَ أَنْتِ يا قَمَرَ الدِّين ؟»

وَجاوَبَهُ الصَّدى مِنْ كُلِّ مَكانٍ حَوْلَهُ ، مِنْ جِبالِ الجَليدِ وَأَنْهارِ الجَليدِ . وَرَمَقَتْهُ طُيورُ البِطْريقِ في تُخَمَةٍ وَسِمْنَةٍ وَكَسَلٍ وَلَمْ تَعْبَأْ بِهِ . وَكَيْفَ تَعْبَأُ طُيورُ البِطْريقِ بِعَلاءِ الدِّين أَوْ بِغَيْرِهِ وَقَدْ سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لاخْتِيالِها وَزَهْوِها ؟

وَرَأى عَلاءُ الدِّين بَعْضَ الأَعْشابِ القَليلَةِ النَّابِتَةِ بَيْنَ الجَليدِ هُنا وَهُناكَ ، وَكانَ يُحِسُّ بِجوعٍ شَديدٍ ؛ فَتَناوَلَ بَعْضَها وَمَضَغَهُ ، فَلَمْ يَسْتَطِبْ مَذاقَهُ



وَعادَ يُواصِلُ تَجْوالَهُ وَهُوَ يَصيحُ مُنادِياً أُخْتَهُ قَمَرَ الدِّين وَعَروسَ البَحْرِ دونَ جَدْوى .

وَفَجْأَةً رَأى مَجْموعَةً مِنْ أَفْيالِ البَحْرِ الَّتي يُعْرَفُ الواحِدُ مِنْها « بِالفَظِّ » ، وَكانَ طولُ كُلٍّ مِنها يَصِلُ إلى أَرْبَعَةِ أَمْتارٍ أَوْ أَكْثَرَ ، وَ وَزْنُها يَزيدُ عَلى أَلْفِ كيلوغرامٍ . وَهُوَ غَليظٌ قَبيحُ الهَيْئَةِ لَهُ نابانِ كَبيرانِ بارِزانِ ، وَأَرْجُلٌ أَمامِيَّةٌ تَتَّجِهُ لِلْخَلْفِ ، وَجِلْدُهُ أَسْوَدُ مُجَعَّدٌ ، وَ لِهَذِهِ التَّجْعيداتِ فَوائِدُ في بيئَتِهِ هَذِهِ .

وَفَجْأَةً بَرَزَ دُبٌّ قُطْبِيٌّ طَويلُ القامَةِ يَسيرُ عَلى قَدَمَيْهِ الخَلْفِيَّتَيْنِ وَيَصِلُ طولُهُ إلى ثَلاثَةِ أَمْتارٍ ، وَهُوَ يَتَّجِهُ نَحْوَ عَلاءِ الدِّين ، الَّذي صَرَخَ هَلَعاً ، وَأَخَذَ يَعْدو بِكُلِّ ما أوتِيَ مِنْ قُوَّةٍ هَرَباً مِنَ الدُّبِّ الَّذي انْحَنى وَراحَ يَجْري خَلْفَهُ عَلى أَرْبَعٍ . وَلِحُسْنِ حَظِّهِ اعْتَرَضَ الدُّبَّ فيلٌ مِنْ أَفْيالِ البَحْرِ القَوِيَّةِ ، فَزَأَرَ الدُّبُّ غاضِباً وَسُرْعانَ ما اشْتَبَكَ الاثْنانِ في صِراعٍ هائِلٍ ، الدُّبُّ يَسْتَخْدِمُ مَخالِبَهُ في تَمْزيقِ فيلِ البَحْرِ ، عَلى حينَ راحَ الأَخيرُ يُدافِعُ عَنْ نَفْسِهِ بِأَنْيابِهِ الحادَّةِ الرَّهيبَةِ . وَلَمْ يَنْتَظِرْ عَلاءُ الدِّين لِيَشْهَدَ نِهايَةَ هَذا الصِّراعِ ، فَقَدْ جَعَلَهُ الرُّعْبُ يَجْري وَيَجْري ، حَتّى قَطَعَ مَسافَةً طَويلَةً .

وَ وَصَلَ عَلاءُ الدِّين إلى حافَةِ المُحيطِ فَرَأى جِبالاً مِنَ الثَّلْجِ في كُلِّ مَكانٍ حَوْلَهُ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَلْحَظْ مَخْلوقاً واحِداً . وَفَجْأَةً بَرَزَتْ

نافورَةُ ماءٍ مِنْ قَلْبِ المُحيطِ لِتَنْثُرَ الرَّذاذَ في الهَواءِ ، وَأَدْرَكَ عَلاءُ الدِّين أَنَّ تِلْكَ النّافورَةَ تَنْبَثِقُ مِنْ فَمِ حوتٍ مِنْ حيتانِ المِنْطَقَةِ المُتَجَمِّدَةِ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ ثَمَّةَ وَسيلَةٌ لِمُغادَرَةِ تِلْكَ الصَّحْراءِ الجَليدِيَّةِ سِوى الحيتانِ ، فَأَلْقى بِنَفْسِهِ في الماءِ البارِدِ بُرودَةَ الثَّلْجِ ، وَراحَ يَسْبَحُ وَأَوْصالُهُ تَكادُ تَتَجَمَّدُ ، حَتّى اسْتَطاعَ الوُصولَ إلى الحوتِ الضَّخْمِ فَتَعَلَّقَ بِذَيْلِهِ . وَلِدَهْشَتِهِ الشَّديدَةِ لَمَحَ أَيْضاً رَفيقَتَهُ عَروسَ البَحْرِ مُتَعَلِّقَةً بِذَيْلِ ذَلِكَ الحوتِ ؛ فَسَعِدَ الصَّديقانِ بِتَلاقيهِما سَعادَةً تُعَوِّضُهُما عَمّا أَصابَهُما – مُنْذُ افْتِراقِهِما – مِنَ التَّعاسَةِ وَالرُّعْبِ .

وَكانَتْ عَروسُ البَحْرِ أَسْرَعَ في سُؤالِها مِنْهُ ، فَبادَرَتْهُ هاتِفَةً : « كَيْفَ حالُكَ أَيُّها العَزيزُ ؟ لَقَدْ خَشيتُ أَنْ تَكونَ قَدْ أُصِبْتَ بِمَكْروهٍ ، وَلَكِنِّي أَدْرَكْتُ أَنَّ التَّيّارَ حَمَلَكَ إلى هُنا ، فَأَسْرَعْتُ في إِثْرِكَ لإِنْقاذِكَ ، وَتَعَلَّقْتُ بِذَيْلِ حوتِ العَنْبَرِ الَّذي يَعيشُ في هَذِهِ المِنْطَقَةِ المُتَجَمِّدَةِ . إِنَّهُ أَضْخَمُ حوتٍ في فَصيلَتِهِ . وَلَكِنْ قُلْ لي ماذا حَدَثَ لَكَ ؟»

قَصَّ عَلاءُ الدِّين عَلى عَروسِ البَحْرِ ما حَدَثَ لَهُ ، فَعَقَّبَتْ : « حَمْداً لِلَّهِ . لَقَدْ ساقَتْكَ الأَمْواجُ إلى القُطْبِ الشَّمالِيِّ ، حَيْثُ كُلُّ شَيْءٍ مُتَجَمِّدٌ .»

تَساءَلَ عَلاءُ الدِّين بِدَهْشَةٍ : « وَمِنْ أَيْنَ جاءَتْ كُلُّ جِبالِ الثَّلْجِ

تِلْكَ ؟»

رَدَّتْ عَروسُ البَحْرِ : « إنَّها ماءٌ مُتَجَمِّدٌ تَراكَمَ مُنْذُ آلافِ السِّنينَ مُكَوِّنًا هَذِهِ الجِبالَ الَّتي تُشْبِهُ الجُزُرَ العائِمَةَ . إنَّ ما تَراهُ أمامَكَ مِنْ جِبالٍ فَوْقَ سَطْحِ الماءِ ، لا يُشَكِّلُ سِوى جُزْءٍ مِنْ عَشَرَةِ أجْزاءٍ مِنْ حَجْمِ الجِبالِ الجَليدِيَّةِ الغائِصَةِ في قَلْبِ الماءِ .»

قالَ عَلاءُ الدّينِ بِتَعَجُّبٍ : « وَلكِنْ لِماذا لا تَغْرَقُ جِبالُ الجَليدِ في ماءِ المُحيطِ ؟ وَما الَّذي يَجْعَلُها تَطْفو هَكَذا ؟»

رَدَّتْ عَروسُ البَحْرِ : « إنَّ السَّبَبَ في ذَلِكَ يَكْمُنُ في أنَّ كَثافَةَ الثَّلْجِ أقَلُّ مِنْ كَثافَةِ الماءِ ، فَالماءُ عِنْدَما يَتَحَوَّلُ إلى ثَلْجٍ تَقِلُّ كَثافَتُهُ وَلِذا فَإنَّ قِطْعَةَ الثَّلْجِ لا تَغْرَقُ في كوبِ ماءٍ ، وَهَذا هُوَ ما يَحْدُثُ بِالضَّبْطِ لِجِبالِ الجَليدِ حَوْلَنا ، فَإنَّها تَطْفو فَوْقَ الماءِ وَلا تَغْرَقُ بِداخِلِهِ .»

قالَ عَلاءُ الدّينِ وَهُوَ يَرْتَجِفُ : « أرْجو أنْ نُغادِرَ هَذا المَكانَ بِأسْرَعِ ما يُمْكِنُنا . إنَّني لا أحْتَمِلُ هَذِهِ البُرودَةَ . هَيّا أيُّها الحوتُ الطَّيِّبُ ، خُذْنا إلى المِياهِ الدّافِئَةِ .»

وَبَعْدَ بُرْهَةٍ تَحَرَّكَ الحوتُ غائِصًا في الماءِ ، وَعَلاءُ الدّينِ وَعَروسُ البَحْرِ مُتَعَلِّقانِ بِذَيْلِهِ . وَظَلَّ الحوتُ سابِحًا مَسافَةً طَويلَةً حَتَّى اخْتَفَتْ جِبالُ الجَليدِ مِنْ حَوْلِهِما ، وَأحَسّا بِالدِّفْءِ بَعْدَ أنْ عادا

إلى مُصافَحَةِ المِياهِ الدّافِئَةِ المُتَرامِيَةِ الأطْرافِ في أحْضانِ المُحيطِ .

وَهُناكَ تَرَكا ذَيْلَ الحوتِ ، وَراحا يَغوصانِ ، وَقَدْ لاحَ الحُزْنُ الشَّديدُ عَلى وَجْهِ عَلاءِ الدّينِ ، وَطَفَرَتِ الدُّموعُ مِنْ عَيْنَيْهِ وَهُوَ يَقولُ : « لَقَدْ جُبْنا المُحيطاتِ وَالبِحارَ بَحْثًا عَنْ أُخْتِيَ الحَبيبَةِ قَمَرِ الدّينِ بِدونِ أنْ نَعْثُرَ لَها عَلى أثَرٍ ، فَكَيْفَ سَأعودُ الآنَ إلى والِدَيَّ بِدونِها ؟ وَكَيْفَ سَأحْتَمِلُ الحَياةَ بِدونِها ؟ إنَّني أُحِبُّها ، وَلا أسْتَطيعُ الحَياةَ بِدونِها .»

وَأخَذَ يَنْتَحِبُ بِشِدَّةٍ وَعَروسُ البَحْرِ تُحاوِلُ أنْ تُهَوِّنَ الخَطْبَ عَلَيْهِ ، وَلكِنَّهُ كانَ يَشْتَدُّ في بُكائِهِ أكْثَرَ وَأكْثَرَ ، وَهُوَ يُحِسُّ بِالذَّنْبِ ؛ فَقَدْ راحَتْ أُخْتُهُ ضَحِيَّةَ خِداعِهِ وَأكاذيبِهِ .

وَفَجْأةً بَرَزَتْ جِنِّيَّةُ البَحْرِ مِنْ جَوْفِ الماءِ ، وَما إنْ شاهَدَها عَلاءُ الدّينِ حَتّى كَفَّ عَنِ البُكاءِ ، وَقالَ لَها مُتَوَسِّلاً : « أيَّتُها الجِنِّيَّةُ الطَّيِّبَةُ ، أرْجوكِ أنْ تُعيدي إلَيَّ أُخْتي ! لَقَدْ عاقَبْتِني أشَدَّ العِقابِ . لَنْ أعودَ إلى الكَذِبِ مَرَّةً أُخْرى . لَقَدْ لُقِّنْتُ دَرْسًا قاسِيًا هَذِهِ المَرَّةَ .»

وَأخَذَتِ الدُّموعُ تَنْهَمِلُ مِنْ عَيْنَيْهِ ؛ فَرَقَّ قَلْبُ جِنِّيَّةِ البَحْرِ لَهُ ، وَقالَتْ : « كَفى ، كَفى بُكاءً يا عَلاءَ الدّينِ . الآنَ أوقِنُ أنَّكَ

عُوقِبْتَ بِما فيهِ الكِفايَةُ . هَيّا اسْبَحْ إلى الشّاطِئِ الّذي فَقَدْتَ فيهِ أُخْتَكَ قَمَرَ الدّين ، وَسَتَجِدُها هُناكَ لَمْ يَحْدُثْ لها مَكْروهٌ على الإِطْلاقِ .»

هَتَفَ عَلاءُ الدّين فَرِحًا : « إِنَّني أَشْكُرُكِ أَيَّتُها الجِنّيَّةُ الطَّيِّبَةُ . أَشْكُرُكِ مِنْ صَميمِ قَلْبي ، وَأَعِدُكِ بِأَنَّني لَنْ أَكْذِبَ أَبَدًا أَوْ أَخْدَعَ أَحَدًا .»

قالَتْ عَروسُ البَحْرِ بِسَعادَةٍ : « وَأَنا أَيْضًا أَشْكُرُكِ أَيَّتُها الجِنّيَّةُ الطَّيِّبَةُ .»

وَاخْتَفَتْ جِنّيَّةُ البَحْرِ في الحالِ ، وَصاحَ عَلاءُ الدّين بِعَروسِ البَحْرِ بِلَهْفَةٍ : « وَالآنَ ، خُذيني وَأَسْرِعي إلى شاطِئِ بَحْرِنا ؛ فَقَدْ طالَ شَوْقي لِرُؤْيَةِ أُخْتي الحَبيبَةِ .»

أَوْمَأَتْ عَروسُ البَحْرِ بِرَأْسِها ، وَتَعَلَّقَ عَلاءُ الدّين بِذَيْلِها ، وَراحَتْ تَسْبَحُ بِهِ حَتّى وَصَلا أَخيرًا إلى الشّاطِئِ الّذي اخْتَفَتْ فيهِ قَمَرُ الدّين . وَأَسْرَعَ عَلاءُ الدّين يُغادِرُ الماءَ ، فَشاهَدَ أُخْتَهُ راقِدَةً على الشّاطِئِ كَأَنَّها نائِمَةٌ .

أَسْرَعَ عَلاءُ الدّين صَوْبَها وَحَدَّقَ إِلَيْها وَهَزَّها ، فَفَتَحَتْ عَيْنَيْها بِدَهْشَةٍ ، وَقالَتْ : « عَلاءُ الدّين ! أَيْنَ ذَهَبْتَ ؟ لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنَّكَ

غَرِقْتَ فَظَلِلْتُ أَبْكي ، وَكِدْتُ أَغْرَقُ أَنا أَيْضًا لَوْلا سَيِّدَةٌ عَجوزٌ ذاتُ شَعْرٍ أَشْيَبَ كالثَّلْجِ أَنْقَذَتْني واسْتَضافَتْني ، ثُمَّ عادَتْ بي إلى الشّاطِئِ مَرَّةً ثانِيَةً .»

سَأَلَ عَلاءُ الدّين أُخْتَهُ بِدَهْشَةٍ : « أَلَمْ تَخْتَطِفْكِ هَذِهِ العَجوزُ إلى أَعْماقِ البِحارِ ؟»

رَدَّتْ قَمَرُ الدّين في حَيْرَةٍ : « لَقَدْ فَعَلَتْ ، وَلَكِنَّني أَظُنُّ أَنَّني كُنْتُ أَحْلُمُ ؛ إِذْ لا يُمْكِنُ لإِنْسانٍ أَنْ يَغوصَ إلى أَعْماقِ البِحارِ وَيَعودَ حَيًّا . لا شَكَّ أَنَّني كُنْتُ أَحْلُمُ .»

اِبْتَسَمَ عَلاءُ الدّين ، وَلَمْ يَشَأْ أَنْ يُخْبِرَ أُخْتَهُ قَمَرَ الدّين بِما حَدَثَ لَهُ ، واكْتَفى بِأَنْ قالَ : « دَعينا نَأْخُذْ حَقائِبَنا ، وَنَعُدْ إلى والِدَيْنا ؛ فَلا بُدَّ أَنَّهُما في أَشَدِّ حالاتِ القَلَقِ عَلَيْنا ، فَقَدِ انْقَضَتْ عِدَّةُ أَيّامٍ على غِيابِنا .»

اِسْتَفْسَرَتْ قَمَرُ الدّين بِتَعَجُّبٍ : « أَتَقولُ انْقَضَتْ أَيّامٌ ؟ إِنَّ ما مَرَّ مِنْ وَقْتٍ لا يَتَعَدّى بِضْعَ دَقائِقَ ! اُنْظُرْ ها هِيَ ذي ساعَتي الرَّقْمِيَّةُ . إِنَّ بِها تاريخَ اليَوْمِ وَالسّاعَةَ .»

نَظَرَ عَلاءُ الدّين إلى ساعَةِ أُخْتِهِ مُتَحَيِّرًا ، فَقَدْ كانَ ما قالَتْهُ صَحيحًا ، وَتَعَجَّبَ أَنَّ رِحْلَتَهُ الطَّويلَةَ في البِحارِ وَالمُحيطاتِ لَمْ

تَسْتَغْرِقْ سِوى دَقائِقَ مَعْدوداتٍ . وَلكِنَّهُ نَفَضَ حَيْرَتَهُ قائِلاً : « هَيّا بِنا .»

وَعَرَفَ عَلاءُ الدِّين ، كَما عَرَفَتْ أُخْتُهُ الذَّكِيَّةُ الطَّيِّبَةُ ، أَنَّ أَطْوَلَ الأَحْلامِ لا تَسْتَغْرِقُ سِوى وَقْتٍ قَصيرٍ يَكادُ يُقاسُ بِالدَّقائِقِ ، وَرُبَّما بِالثَّواني .

وَلَوَّحَ بِيَدِهِ لِعَروسِ البَحْرِ الَّتي كانَتْ تَسْبَحُ قَرِيباً مِنَ الشّاطِئِ ، وَقالَ لَها : « شُكْراً لَكِ أَيَّتُها الصَّديقَةُ عَروسُ البَحْرِ . سَوْفَ أَظَلُّ مَديناً لَكِ طَوالَ عُمْري .»

لَوَّحَتْ لَهُ عَروسُ البَحْرِ بِذِراعَيْها ، ثُمَّ غاصَتْ في الماءِ .

وَسَأَلَتْ قَمَرُ الدين أَخاها بِدَهْشَةٍ : « مَنْ عَروسُ البَحْرِ تِلْكَ ؟ وَكَيْفَ تَعَرَّفْتَ عَلَيْها ؟ وَلماذا أَنْتَ مَدينٌ لَها ؟»

اِبْتَسَمَ عَلاءُ الدين ، وَقالَ : « هذِهِ قِصَّةٌ طَويلَةٌ ، سَوْفَ أَحْكيها لَكِ يَوْماً ما .»

وَسارَ وَهُوَ يُغَنّي بِسَعادَةٍ وَبِجِوارِهِ أُخْتُهُ قَمَرُ الدِّين وَهِيَ لا تَعي شَيْئًا مِمّا حَدَثَ .

نورُ العُيون

فِي قَديمِ الزَّمانِ ، وَفي سالِفِ العَصْرِ وَالأَوانِ ، عاشَ راعٍ لِلْغَنَمِ وَزَوْجَتُهُ في أَحَدِ الأَوْدِيَةِ ، مَعَ قَطيعٍ صَغيرٍ مِنَ الغَنَمِ ، يَرْعَيانِهِ في الأَرْضِ المُعْشِبَةِ حَوْلَهُما ، وَيَقْتاتانِ لُحومَ المَعْزِ وَيَشْرَبانِ مِنْ أَلْبانِها ، وَيَتَّخِذانِ كوخاً صَغيراً مَسْكَناً لَهُما ، صَنَعاهُ مِنْ أَغْصانِ الأَشْجارِ وَسَعَفِ النَّخيلِ ، وَكَسَياهُ مِنْ جُلودِ المَعْزِ وَ وَبَرِ الشِّياهِ . وَكانا قانِعَيْنِ بِما أَسْبَغَهُ اللّهُ عَلَيْهِما مِنْ رِزْقٍ .

وَحَمَلَتْ زَوْجَةُ الرّاعي فَابْتَهَلَتْ إِلى اللّهِ أَنْ يَكونَ المَوْلودُ ذَكَراً صَحيحَ البَدَنِ ، لِيَرْعاهُما في كِبَرِهِما ، وَيُؤانِسَهُما في وَحْدَتِهِما . وَأَنْجَبَتْ زَوْجَةُ الرّاعي طِفْلَةً جَميلَةً ، وَجْهُها مُنيرٌ ، وَلَها بَشَرَةٌ بَيْضاءُ ، وَذاتُ شَعْرٍ أَسْوَدَ فاحِمٍ ، وَعَيْناها خَضْراوانِ تَلْمَعانِ كَأَنَّهُما نَجْمَتانِ مُتَلأْلِئَتانِ ، أَوْ قِطْعَتانِ مِنَ الماسِ . اِبْتَهَجَ الرّاعي وَزَوْجَتُهُ بِالابْنَةِ الَّتي وَهَبَها اللّهُ إِيّاهُما ، وَأَسْمَياها « نور العُيون » ؛ مِنْ أَلَق

عَيْنَيْها وَبَهاءِ مُحَيّاها . وَتَعَهَّداها بِالرِّعايَةِ وَالعِنايَةِ ، وَكانَ كُلُّ مَنْ يَرى نورَ العُيونِ يَهْتِفُ إعْجاباً : « ما أجْمَلَها مِنْ فَتاةٍ ! وَما أبْدَعَ صُنْعَ اللهِ ! إنَّ لَها أجْمَلَ عَيْنَيْنِ في الدُّنْيا ! »

أتَمَّتْ نورُ العُيونِ العامَ الأوَّلَ مِنْ عُمْرِها . وَذاتَ يَوْمٍ خَرَجَتِ امْرَأةُ الرّاعي إلى زَوْجِها صارِخَةً باكِيَةً : « أدْرِكْني ، يا زَوْجي العَزيزَ ! ما أعْظَمَ مُصيبَتَنا ، وَما أكْبَرَ بَلْوانا ! ما أسْوَأَ مَصيرَ ابْنَتِنا ! »

سَأَلَها الرّاعي فَزِعاً : « ماذا حَدَثَ ، يا زَوْجَتي ؟ لِماذا تَصْرُخينَ وَتَبْكينَ هكَذا ؟ »

قالَتِ المَرْأةُ باكِيَةً : « إنَّها ابْنَتُكَ نورُ العُيونِ ذاتُ العَيْنَيْنِ الخَضْراوَيْنِ . إنَّها عَمْياءُ ! وَلَمْ أكْتَشِفْ ذلِكَ سِوى الآنَ . إنَّها لا تُبْصِرُ شَيْئاً حَوْلَها . »

صُدِمَ الرّاعي وَأسْرَعَ إلى طِفْلَتِهِ الصَّغيرَةِ ، وَكانَتْ راقِدَةً في فِراشِها ، ساكِنَةً صامِتَةً ، وَهِيَ تَتَطَلَّعُ بِعَيْنَيْها الجَميلَتَيْنِ إلى سَقْفِ الكوخِ ، دونَ أنْ تُحَرِّكَهُما في مَحْجِرَيْهِما .

حَمَلَ الرّاعي ابْنَتَهُ ، وَلَوَّحَ بِيَدِهِ أمامَ عَيْنَيْها ، فَلَمْ تَطْرِفْ لَها عَيْنٌ ، أوْ يَبْدُ عَلى صاحِبَتِها أنَّها تُبْصِرُ بِها ؛ فَتَأكَّدَ لِلرّاعي أنَّ ابْنَتَهُ

وُلِدَتْ عَمْياءَ ، وَإنْ لَمْ يُلاحِظْ ذلِكَ هُوَ وَزَوْجَتُهُ إلّا مُتَأخِّراً . وَبَكى الرَّجُلُ وَتَساقَطَتْ مِنْ عَيْنَيْهِ دُموعٌ حارَّةٌ غَزيرَةٌ ، وَاعْتَصَرَ الحُزْنُ قَلْبَهُ ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ مُبْتَهِلاً إلى اللهِ مُناجِياً : « إلهي ، لَقَدْ كانَتْ نورُ العُيونِ هِبَتَكَ لَنا ، فَإنَّكَ (جَلَّ جَلالُكَ) مَنْ مَنَحْتَها جَمالَ العَيْنَيْنِ ، وَحَرَمْتَها في الوَقْتِ ذاتِهِ نِعْمَةَ البَصَرِ ، فَلْتَشْمَلْها بِرَحْمَتِكَ وَعِنايَتِكَ ، يا أرْحَمَ الرّاحِمينَ . »

وَبَكَتْ زَوْجَتُهُ قائِلَةً : « لَقَدْ تَمَنَّيْنا عَلى اللهِ (جَلَّ جَلالُهُ) ابْناً أوِ ابْنَةً يُؤْنِسُ وَحْدَتَنا وَيَكونُ سَنَدَنا في كِبَرِنا ، فَوَهَبَنا اللهُ طِفْلَةً سَوْفَ تَحْتاجُ لِمَنْ يَرْعاها مَهْما كَبِرَتْ ؛ فَالضَّريرُ في حاجَةٍ إلى مَنْ يَمُدُّ لَهُ يَدَ المُساعَدَةِ وَالعَوْنِ مَهْما تَقَدَّمَتْ سِنُّهُ . »

وَعِنْدَما عَلِمَ الأقارِبُ وَالجيرانُ بِأنَّ نورَ العُيونِ ضَريرَةٌ ، ظَهَرَ الحُزْنُ عَلَيْهِمْ ، وَذَرَفوا الدُّموعَ الغِزارَ ، وَهُمْ يَتَعَجَّبونَ : « ما أغْرَبَ الأمْرَ ! طِفْلَةٌ لَها أجْمَلُ عَيْنَيْنِ في الدُّنْيا ، وَلكِنَّها لا تُبْصِرُ بِهِما ! سُبْحانَ اللهِ ! »

وَمَرَّتِ الأعْوامُ وَنَمَتْ نورُ العُيونِ ، حَتّى صارَ عُمْرُها سَبْعَ سَنَواتٍ ، دونَ أنْ تَبْرَحَ كوخَ والِدَيْها . وَكانَتْ كُلَّما أرادَتِ الخُروجَ مَنَعَها والِداها ؛ خَوْفاً عَلَيْها ، فَكانَتْ تَنْتَحِبُ في صَمْتٍ ، وَتَجْلِسُ في الكوخِ وَحيدَةً حَزينَةً .

وَذاتَ يَوْمٍ هَمَسَ الرّاعي لامْرَأتِهِ قائِلاً : « أيْ زَوْجَتِيَ العَزيزَةَ ، إنَّنا لا نَعْلَمُ مَتى تُدْرِكُنا المَنِيَّةُ ؛ فَقَدْ تَكونُ اليَوْمَ أوْ غَداً أوْ بَعْدَ غَدٍ ، فَعِنْدَئِذٍ نَكونُ قَدْ ظَلَمْنا ابْنَتَنا وَأشْقَيْناها مِنْ حَيْثُ لا نَدْري ؛ فَمِنَ الواجِبِ عَلَيْنا أنْ نُعَلِّمَها كَيْفَ تَعْتَمِدُ عَلى نَفْسِها . فَإنْ كانَ اللّهُ قَدْ خَلَقَها لا تُبْصِرُ لِحِكْمَةٍ لا نَدْريها ، فَهُوَ قَدْ مَنَحَها حَواسَّ كَثيرَةً غَيْرَ عَيْنَيْها ، وَعَلَيْها أنْ تُنَمّيَ قُدُراتِها لِلاسْتِفادَةِ مِنْها ، حَتّى يَأتِيَ اليَوْمُ الَّذي تَسْتَطيعُ فيهِ الاعْتِمادَ عَلى نَفْسِها ؛ لأنَّنا لَنْ نَدومَ لَها طَوالَ العُمْرِ لِنَرْعى شُئونَها .»

أمَّنَتْ زَوْجَةُ الرّاعي قائِلَةً : « مَعَكَ الحَقُّ كُلُّ الحَقِّ ، يا زَوْجِيَ العَزيزَ ، وَإنّي لأتَعَجَّبُ كَيْفَ لَمْ أُفَكِّرْ في هذا الأمْرِ مِنْ قَبْلُ ؟ سَأعْمَلُ مِنَ الآنَ فَصاعِداً عَلى أنْ أجْعَلَ نورَ العُيونِ فَتاةً جَديرَةً بِالاعْتِمادِ عَلَيْها في كُلِّ شُئونِها وَشُئونِنا .»

وَذَهَبَتْ إلى ابْنَتِها في التَّوِّ ، وَبادَرَتْها قائِلَةً : « أيْ بُنَيَّتي الغالِيَةَ ، سَتَعْتَمِدينَ مِنَ الآنَ فَصاعِداً عَلى نَفْسِكِ ، وَعَلَيْكِ أنْ تَبْذُلي جُهْدَكِ في التَّعَلُّمِ وَالتَّدَرُّبِ ، وَتُعَوِّضي مِنْ ظَلامِ عَيْنَيْكِ بِنورِ قَلْبِكِ .»

وَصَحِبَتِ ابْنَتَها نورَ العُيونِ إلى الخَلاءِ . وَكانَتِ المُروجُ الخَضْراءُ

تُحيطُ بِهِما مِنْ كُلِّ جانِبٍ ، وَقَدْ هَلَّتْ بَشائِرُ الرَّبيعِ ، فَصَفا الجَوُّ وَتَفَتَّحَ الزَّهْرُ ، وَانْطَلَقَتِ الأغْنامُ وَالشِّياهُ تَرْعى في كُلِّ مَكانٍ .

وَ وَقَفَتْ نورُ العُيونِ مُبْتَهِجَةً وَسَطَ المُروجِ ، وَهِيَ تَتَسَمَّعُ ثُغاءَ الشِّياهِ ، فَسَألَتْ أمَّها : « ما هذا الصَّوْتُ الَّذي أسْمَعُهُ ، يا أمّي ؟»

أجابَتْها أمُّها : « إنَّها أصْواتُ الشِّياهِ ؛ فَالشِّياهُ تَثْغو ، وَالكِلابُ تَنْبَحُ ، وَالذِّئابُ تَعْوي ، وَالأبْقارُ تَخورُ ، وَالدُّيوكُ تَصيحُ ، وَالدَّجاجُ يُكَرْكِرُ ، وَالحَمامُ يَهْدِلُ ، وَالعَصافيرُ تُشَقْشِقُ . فَلِكُلِّ مَخْلوقٍ حَيٍّ صَوْتٌ خاصٌّ بِهِ ، وَعَلَيْكِ تَمْييزُ الأصْواتِ مِنَ الآنَ ؛ حَتّى تَسْتَطيعي التَّعَرُّفَ عَلى المَخْلوقاتِ وَالنّاسِ مِنْ خِلالِ أصْواتِهِمْ .»

وَاشْتَمَّتْ نورُ العُيونِ رائِحَةً ذَكِيَّةً ، فَسَألَتْ أمَّها : « ما هذِهِ الرّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ الَّتي أشَمُّ ، يا أمّي ؟»

أجابَتْها أمُّها : « إنَّها رائِحَةُ الوَرْدِ ، وَكُلُّ نَوْعٍ لَهُ رائِحَةٌ خاصَّةٌ بِهِ يُمْكِنُ تَمْييزُهُ مِنْها ، وَكَذلِكَ لِكُلِّ وَرْدَةٍ أوْ زَهْرَةٍ شَكْلٌ مُخْتَلِفٌ عَنِ الآخَرِ .»

سَألَتْ نورُ العُيونِ : « وَما هُوَ شَكْلُ الوَرْدِ ؟»

أجابَتْها أمُّها : « إنَّها ذاتُ أشْكالٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَكُلُّها ذاتُ مَلْمَس

رَقيقٍ ناعِمٍ . مِنْها ما هُوَ قَليلُ الأوْراقِ ، وَمِنْها ما هُوَ كَثيرُهُ ، وَمِنْها أحْمَرُ اللَّوْنِ ، وَمِنْها ما هُوَ أبْيَضُ أوْ أصْفَرُ .»

سَأَلَتْ نورُ العيونِ أمَّها : « وَما الفرْقُ بيْنَ اللَّوْنِ الأحْمَرِ وَالأبْيَض وَالأصْفَرِ ، وَكَيْفَ يُمْكِنُني أنْ أميِّزَ بيْنَها ؟»

أجابَتْها الأمُّ : « إنَّ اللَّوْنَ الأحْمَرَ يُشْبِهُ لَوْنَ الشَّفَقِ وَقْتَ الغُروبِ ، أمَّا اللَّوْنُ الأبْيَضُ فَهُوَ يُشْبِهُ الفَجْرَ عِنْدَ بُزوغِهِ ، وَاللَّوْنُ الأصْفَرُ هُوَ لَوْنُ الشَّمْسِ عِنْدَ الأصيلِ .»

فاضَتِ الدُّموعُ مِنْ عَيْنَيْ نورِ العُيونِ ، وَقالَتْ مُنْتَحِبَةً : « وَلكِنِّي لا أعْرِفُ شَكْلَ الشَّفَقِ ، وَلا كَيْفَ يَبْدو الفَجْرُ عِنْدَ بُزوغِهِ ، وَلا هَيْئَةَ الشَّمْسِ عِنْدَما تَتَوَسَّطُ السَّماءَ . إنَّني لَنْ أعْرِفَ أبَداً كَيْفَ تَبْدو الألْوانُ عَلى حَقيقَتِها !»

أفْعَمَ الحُزْنُ قَلْبَ الأمِّ ، وأدْرَكَتْ أنَّها مَهْما حاوَلَتِ الوَصْفَ فَلَنْ تَسْتَطيعَ أنْ تَجْعَلَ ابْنَتَها تُدْرِكُ تَفاصيلَ أشْياءَ لا تَراها ، فَقالَتْ لَها مُواسِيَةً : « أيْ بُنَيَّتي ، إنَّ ما لا تَسْتَطيعينَ رُؤْيَتَهُ بِعَيْنَيْكِ يُمْكِنُكِ أنْ تُدْرِكيهِ وَتَعْرِفيهِ بِقَلْبِكِ . فَعِنْدَما تُحِسّينَ بِأشِعَّةِ الشَّمْسِ قاسِيَةً ساخِنَةً حَوْلَكِ ، فَاعْلَمي أنَّها تَتَوَسَّطُ السَّماءَ مُتَوَهِّجَةً ، وَأنَّها تَبْدو في كَبِدِ السَّماءِ كَقُرْصٍ مُلْتَهِبٍ ، حينَئِذٍ يَكونُ وَقْتَ مُنْتَصَفِ

النَّهارِ . وَعِنْدَما تَنْكَسِرُ حِدَّةُ الشَّمْسِ وَتُحِسّينَ بِتَلَطُّفِ الجَوِّ ، وَتَسْمَعينَ أصْواتَ الحَيَواناتِ وَرُعاتُها يَسوقونَها عائِدَةً إلى حَظائِرِها ؛ فَاعْلَمي أنَّهُ وَقْتُ الشَّفَقِ قَبْلَ حُلولِ المَساءِ ، وَأنَّ السَّماءَ تَخَضَّبَتْ بِاللَّوْنِ الأحْمَرِ القانِي ، وَأنَّ الشَّمْسَ موشِكَةٌ عَلى الغُروبِ . أمَّا حينَ تَسْتَيْقِظينَ في الصَّباحِ الباكِرِ عَلى صِياحِ الدُّيوكِ حادًّا عالِياً ، لا يُشارِكُها فيهِ صَوْتُ إنْسانٍ أوْ حَيَوانٍ ، فَاعْلَمي أنَّ الفَجْرَ قَدْ بَزَغَ ، وَأنَّ الدُّنْيا قَدْ تَكَلَّلَتْ بِأنْوارِهِ الفِضِّيَّةِ ، وَأنَّ الشَّمْسَ هِيَ أيْضاً توشِكُ عَلى الشُّروقِ ، عِنْدَها يَسْتَيْقِظُ النّاسُ مِنْ رُقادِهِمْ وَيَتَّجِهونَ إلى أعْمالِهِمْ .»

ابْتَسَمَتْ نورُ العُيونِ وَقالَتْ مُبْتَهِجَةً : « الآنَ أسْتَطيعُ أنْ أعْرِفَ ما هِيَ الشَّمْسُ ، وَمَتى يَبْزُغُ الفَجْرُ ، وَكَيْفَ يَكونُ الشَّفَقُ . وَيُمْكِنُني أنْ أتَخَيَّلَ كَيْفَ تَكونُ ألْوانُها .»

قالَتْ الأمُّ : « فَلْتَمْكُثي هُنا يا ابْنَتي ، رَيْثَما أذْهَبُ إلى والِدِكِ فَأُساعِدُهُ في إعادَةِ الأغْنامِ لِحَظيرَتِها ؛ فَقَدْ أوْشَكَ اللَّيْلُ أنْ يُخَيِّمَ عَلى المَكانِ .»

وَيَمَّمَتِ الأمُّ صَوْبَ زَوْجِها ، فَقادا الأغْنامَ إلى حَظيرَتِها . وَمَكَثَتْ نورُ العُيونِ واقِفَةً ، تَحِسُّ الأشْياءَ وَالأحْياءَ بِقَلْبِها ، وَتُمَيِّزُها



بِعقْلِها ، وَتَتَسمَّعُ أصْواتَ الحَيَواناتِ وَالطَّبيعَةِ حوْلَها ، وَتَشُمُّ الطِّيبَ مِنْ كُلِّ الألْوانِ .

وَفَجْأةً عَوى ذِئْبٌ عَجوزٌ قَريبٌ عِنْدَما رأى نورَ العُيونِ وَحيدَةً ؛ فَصَرَخَتْ مَذْعورَةً ، وَقَدْ أدْرَكَتْ مِنْ صَوْتِهِ المُخيفِ أنَّهُ حَيَوانٌ مُفْتَرِسٌ يوشِكُ عَلى الانْقِضاضِ عَلَيْها . وَلَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ أحَدٌ قَريبٌ لِيَرُدَّ عَنْها هذا الحَيَوانَ المُفْتَرِسَ ، فَبَكَتْ نورُ العُيونِ وَهِيَ تَسْمَعُ عُواءَ الوَحْشِ الَّذي هَمَّ بِالانْدِفاعِ نَحْوَها لِيَفْتَرِسَها ، وَهِيَ لا تَسْتَطيعُ الدِّفاعَ عَنْ نَفْسِها ، وَما مِنْ سَبيلٍ إلى الهُروبِ مِنْ وَجْهِهِ .

وَفَجْأةً نَبَحَ كَلْبُ القَطيعِ ، وَانْدَفَعَ مُهاجِماً الذِّئْبَ ، فَأنْشَبَ فيهِ مَخالِبَهُ ، وَعَقَرَهُ بِأنْيابِهِ الحادَّةِ ، فَعَوى الذِّئْبُ مُتَألِّماً ، وَفَرَّ هارِباً .

اقْتَرَبَ الكَلْبُ الوَفِيُّ مِنْ نورِ العُيونِ وَأخَذَ يَتَمَسَّحُ بِها ، فَاحْتَضَنَتْهُ وَرَبَّتَتْ عَلَيْهِ شاكِرَةً ، وَهِيَ تَقولُ : « لَقَدْ أنْقَذْتَني مِنَ الذِّئْبِ أيُّها الكَلْبُ الشُّجاعُ ، وَكُنْتَ خَيْرَ مِثالٍ لِلْوَفاءِ ؛ لِذَلِكَ سَتَكونُ صَديقي مِنَ الآنَ فَصاعِداً ، وَلَنْ نَفْتَرِقَ أبَداً ، وَسَأدْعوكَ «« مُخْلِص »» ؛ لأنَّكَ صَديقٌ مُخْلِصٌ أنْقَذَني مِنَ الذِّئْبِ .»

هُرِعَ الرّاعي وَزَوْجَتُهُ إلى نورِ العُيونِ بَعْدَ أنْ سَمِعا عُواءَ الذِّئْبِ ، وَخَشِيا أنْ يَكونَ قَدْ أصابَها بِسوءٍ ، وَلكِنَّها طَمْأنَتْهُما وَأخْبَرَتْهُما

بِإنْقاذِ الكَلْبِ لَها ؛ فَحَمِدا اللّهَ وَعادوا جَميعًا إلى كوخِهِمْ ، وَتَناوَلوا عَشاءَهُمْ مُغْتَبِطين . وَمُنْذُ ذَلِكَ الحينِ اعْتادَتْ نورُ العُيونِ أنْ تَخْرُجَ إلى المُروجِ القَريبَةِ في صُحْبَةِ والِدَيْها وَكَلْبِها المُخْلِصِ ، فَيَرْعَوْا الغَنَمَ في المَناطِقِ المُحيطَةِ . فَإذا ما صادَفَ نورَ العُيونِ خَطَرٌ ؛ كَأنْ يَكونَ ثَمَّةَ جُرُفٌ هارٍ أوْ مُنْحَدَرٌ توشِكُ أنْ تَسْقُطَ فيهِ ، أوْ أنْ تَكونَ ثَمَّةَ تُرْعَةٌ أوْ جَدْوَلٌ يَعْتَرِضُ طَريقَها ، يَنْبَحُ لَها مُخْلِص مُحَذِّرًا ؛ فَتَعْرِفُ نورُ العُيونِ أنَّ ثَمَّةَ ما يَعوقُها ؛ فَتُغَيِّرُ طَريقَها ، أوْ يَقودُها كَلْبُها نابِحًا لِيُرْشِدَها إلى طَريقٍ آمِنٍ .

وَلَكِنَّ والِدَتَها كانَتْ تَحُثُّها قائِلَةً : « عَلَيْكِ بِالاعْتِمادِ عَلى نَفْسِكِ اعْتِمادًا تامًّا ؛ فَرُبَّما يَجيءُ وَقْتٌ لا يَكونُ فيهِ مُخْلِص بِجِوارِكِ ، وَلا والِداكِ ؛ وَلِذَلِكَ يَجِبُ أنْ يَكونَ اعْتِمادُكِ عَلى نَفْسِكِ كامِلاً . فَإذا كانَ اللّهُ قَدْ حَرَمَكِ مِنْ نِعْمَةِ البَصَرِ ، فَقَدْ وَهَبَكِ حَواسَّ أُخْرى يُمْكِنُكِ بِها أنْ تُعَوِّضي إظْلامَ عَيْنَيْكِ . »

وَبَدَأتِ الأُمُّ تُدَرِّبُ ابْنَتَها عَلى اسْتِخْدامِ أُذُنَيْها في التَّعَرُّفِ إلى كُلِّ ما حَوْلَها مِنْ أصْواتٍ ، فَلِلطَّبيعَةِ أصْواتُها ، وَكَذَلِكَ لِلْحَيَوانِ وَالطَّيْرِ . فَصارَتْ نورُ العُيونِ خَبيرَةً بِأصْواتِ الحَيَوانِ ، مِنْ ثُغاءٍ أوْ نُباحٍ أوْ خُوارٍ ، وَغَدَتْ تَعْرِفُ نَوْعَ الحَيَوانِ مِنْ صَوْتِهِ أوْ وَقْعِ أقْدامِهِ عَلى الأرْضِ ، فَلِلْجَوادِ وَقْعٌ خاصٌّ لِحَوافِرِهِ عَلى الطَّريقِ يَخْتَلِفُ

عَنْ خُطُواتِ الأبْقارِ ، أوِ الحَميرِ ، أوِ الكِلابِ ، وَغَيْرِها مِنَ الحَيَواناتِ .

كَما صارَتْ نورُ العُيونِ تُمَيِّزُ شَخْصِيّاتِ مَنْ حَوْلَها عَنْ طَريقِ أصْواتِهِمْ . وَغَدَتْ أيْضًا عالِمَةً بِأنْواعِ الطُّيورِ مِنْ أصْواتِها ، سَواءً كانَ صِياحًا أوْ نَعيقًا أوْ تَغْريدًا أوْ هَديلاً ؛ فَتَعْرِفُ صاحِبَ الصَّوْتِ وَنَوْعَهُ ، بِمُجَرَّدِ سَماعِ صَوْتِهِ . وَصارَتْ عَليمَةً بِظَواهِرِ الطَّبيعَةِ حَوْلَها ، وَيُمْكِنُها أنْ تُحِسَّ الرِّياحَ وَالزَّوابِعَ قَبْلَ أنْ تَهُبَّ ، وَتَتَنَبَّأَ بِالعَواصِفِ قَبْلَ أنْ تَثورَ ، مِنْ مُقَدِّماتِ أصْواتِها الَّتي تَسْبِقُها دائِمًا .

وَمَرَّنَتْها أُمُّها أيْضًا عَلى أنْ تَسْتَخْدِمَ حاسَّةَ الشَّمِّ في التَّعَرُّفِ إلى الكائِناتِ وَالطَّبيعَةِ وَالأشْياءِ حَوْلَها ، فَعَلَّمَتْها أنَّ لِكُلِّ زَهْرَةٍ أريجَها المُمَيَّزَ ، وَلِكُلِّ فاكِهَةٍ رائِحَةً خاصَّةً ، وَأنَّ كُلَّ إنْسانٍ أوْ حَيَوانٍ لَهُ رائِحَةٌ مُمَيَّزَةٌ أيْضًا . وَحَتّى الجَوُّ المُحيطُ بِها لَهُ رائِحَةٌ خاصَّةٌ تَتَغَيَّرُ بِتَغَيُّرِ الأوْقاتِ ؛ فَفي الصَّباحِ يَكونُ الجَوُّ نَدِيًّا بِأريجٍ لَطيفٍ ، وَفي وَسَطِ النَّهارِ يَمْتَلِئُ بِرَوائِحِ الحَيَواناتِ وَالنّاسِ الَّذينَ انْطَلَقوا إلى أعْمالِهِمْ ، وَفي المَساءِ تَشيعُ في الجَوِّ رائِحَةُ الغَسَقِ وَبَرْدِ اللَّيْلِ . فَصارَتْ نورُ العُيونِ تَسْتَدِلُّ عَلى الوَقْتِ مِنْ أريجِهِ ، بَلْ وَتَعْرِفُ أنَّ السَّماءَ سَتُمْطِرُ قَبْلَ سُقوطِ المَطَرِ ، وَذَلِكَ مِنْ خِلالِ رائِحَةِ الجَوِّ

المُشْبَعَةِ بِالنَّدى وَبُخارِ الماءِ ، وَمِنْ دَرَجَةِ الحَرارَةِ حَوْلَها . وَتَعرِفُ بِمَقْدَمِ الرَّبيعِ مِنْ أَريجِ الأَزْهارِ الَّتي أَوْشَكَتْ عَلى التَّفَتُّحِ ، وَبِقُدومِ الخَريفِ مِنْ جَوِّ الجَفافِ المُحيطِ بِهِ ، وَأَصْواتِ سُقوطِ أَوْراقِ الأَشْجارِ اليابِسَةِ وَتَكَسُّرِها تَحْتَ قَدَمَيْها .

وَأَيْضاً دَرَّبَتْها أُمُّها عَلى اسْتِخْدامِ حاسَّةِ اللَّمْسِ في تَمْييزِ الأَشْياءِ المُحيطَةِ بِها . فَبَدَأَتْ في التَّعَرُّفِ إِلى الطَّبيعَةِ حَوْلَها ، وَصَحِبَتْها أُمُّها في أَرْجاءِ الأَرْضِ المُحيطَةِ بِهِما ؛ ما بَيْنَ طُرُقٍ عُشْبِيَّةٍ أَوْ صَخْرِيَّةٍ وَرَمْلِيَّةٍ ، أَوْ أَنْهارٍ وَجَداوِلِ مِياهٍ ، فَصارَتْ نورُ العُيونِ تُمَيِّزُ كُلَّ الأَماكِنِ حَوْلَها ، مِنْ لَمْسِ قَدَمَيْها لِلأَرْضِ تَحْتَها ، فَتَعْرِفُ في أَيِّ مَكانٍ تَكونُ ، وَما هِيَ سَبيلُ العَوْدَةِ إِلى مَنْزِلِها ، وَأَيَّ طَريقٍ تَسْلُكُ دونَ حاجَةٍ لِمُرْشِدٍ أَوْ دَليلٍ .

وَذاتَ صَباحٍ أَرادَتْ نورُ العُيونِ أَنْ تَسْتَكْشِفَ التَّلَّ القَريبَ الَّذي يَتَّسِمُ بِشِدَّةِ الانْحِدارِ ، وَلكِنَّ والِدَتَها حَذَّرَتْها قائِلَةً : « إِنَّ تِلْكَ المُحاوَلَةَ شَديدَةُ الخُطورَةِ ، فَحَتّى المُبْصِرونَ يَخْشَوْنَ مِنِ ارْتِيادِ التَّلِّ وَارْتِقائِهِ ؛ لأَنَّ صُخورَهُ مَلْساءُ ، وَمَزالِقَهُ عَديدَةٌ . وَقَدْ هَوى كَثيرونَ أَثْناءَ مُحاوَلَتِهِمْ صُعودَهُ ، وَدُقَّتْ أَعْناقُهُمْ في الحالِ . »

وَلكِنَّ نورَ العُيونِ قالَتْ لأُمِّها : « قَدْ تَضْطَرُّني الظُّروفُ يَوْماً إِلى

ارْتِقائِهِ ، فَدَعيني ، يا أُمّي ، أَسْتَكْشِفُهُ وَأَحْفَظُ دُروبَهُ وَمَسالِكَهُ وَصُخورَهُ ، وَأَيْقِني مِنْ أَنَّني سَأَكونُ شَديدَةَ الحَذَرِ في ذلِكَ . »

وافَقَتْ أُمُّها عَلى مَضَضٍ ، وَصارَتْ تَصْحَبُها إِلى التَّلِّ وَتَصْعَدُ بِها إِلى قِمَّتِهِ في حَذَرٍ شَديدٍ مَرّاتٍ عَديدَةً ، وَنورُ العُيونِ تَتَحَسَّسُ كُلَّ صَخْرَةٍ وَنُتوءٍ فيهِ ، حَتّى ارْتَسَمَتْ في ذاكِرَتِها خَريطَةٌ كامِلَةٌ لِكُلِّ صَخْرَةٍ في ذلِكَ التَّلِّ المُنْحَدِرِ . وَصارَتْ بارِعَةً في الصُّعودِ إِلى قِمَّتِهِ وَالهُبوطِ إِلى سَفْحِهِ دونَ خُطورَةٍ ، بَلْ وَاهْتَدَتْ إِلى نَفَقٍ سِرِّيٍّ مِنْ صُنْعِ الطَّبيعَةِ داخِلَ التَّلِّ ، يُؤَدّي إِلى قَصْرِ الأَميرِ المُقامِ فَوْقَهُ .

وَكانَتِ الأُمُّ تَنْصَحُ نورَ العُيونِ بِقَوْلِها : « عِنْدَما تُعْجِزُكِ حَواسُّكِ عَنِ التَّعَرُّفِ عَلى ما حَوْلَكِ وَتُصيبُكِ الحَيْرَةُ ، فَعَلَيْكِ بِاللُّجوءِ إِلى عَقْلِكِ وَقَلْبِكِ ؛ لِكَيْ يَدُلّاكِ عَلى التَّصَرُّفِ الصّائِبِ . »

وَمَرَّتِ السَّنَواتُ حَتّى أَوْشَكَتْ نورُ العُيونِ أَنْ تُتِمَّ عامَها العِشْرينَ ، وَتَقَدَّمَ العُمْرُ بِوالِدَيْها ، فَصارَتِ ابْنَتُهُما تَرْعى كُلَّ شُئونِهِما وَتُلَبّي كُلَّ احْتِياجاتِهِما ؛ مِنْ نَظافَةٍ وَمَأْكَلٍ وَمَلْبَسٍ ، بَعْدَ أَنْ غَدَتْ ماهِرَةً في كُلِّ تِلْكَ الأَشْياءِ . كَما صارَتْ تَرْعى الغَنَمَ وَحْدَها مَعَ كَلْبِها مُخْلِصٍ ؛ فَإِذا ما شَرَدَتْ إِحْدى الأَغْنامِ أَعادَتْها

نورُ العيونِ إلى القطيعِ ، بَعْدَ أنْ تَعْرِفَ مكانَها مِنْ رائِحتِها أوْ صَوْتِها . وَإذا ما اقْتربَ أحدُ الذِّئابِ اشْتَمَّتْ رائِحَتَهُ ، وَتسلَّحَتْ بِعصاً غَليظَةٍ ، لِتَصُدَّهُ إذا ما حاوَلَ إيذاءَها ، أوِ اخْتِطافَ أحَدِ أفْرادِ القَطيعِ ، حتّى خَشِيَتْها الذِّئابُ ، وَابْتَعَدَتْ عَنْ قَطيعِها ؛ لِكَثْرَةِ ما ذاقَتْ مِنْ ضَرَباتِ عَصاها .

وَكُلَّما وَقَعَتْ أبْصارُ النّاسِ عَلى كُلِّ تِلْكَ المَهاراتِ الَّتي بَزَّتْ بِها المُبْصرين ، رَدَّدوا في تَعَجُّبٍ وَدَهْشَةٍ بالغَيْنِ : « ما أعْجَبَ ذَلِكَ ! إنَّ اللَّهَ لا حُدودَ لِقُدْرَتِهِ ، وَيَضَعُ سِرَّهُ في أضْعَفِ مَخْلوقاتِهِ .»

وَاشْتَهَرَتْ نورُ العيونِ بِمَهارَتِها في رَعْيِ الأغْنامِ في كُلِّ دُروبِ الوادي ، فَهِيَ تَعْرِفُ أماكِنَ الكَلأ الوَفيرِ وَمَنابعَ الماءِ النَّميرِ . وَصارَتْ خَبيرَةً بِأرْضِ الوادي كُلِّها ؛ فَتَعْرِفُ أيْنَ تَقَعُ الأماكِنُ المُنْحَدِرَةُ ، أوِ السُّهولُ المُنْبَسِطَةُ ، وَأيْنَ مكانُ مِنْطَقَةِ الصُّخورِ ، وَالرِّمالِ المُتَحَرِّكَةِ الَّتي تَبْتَلِعُ أيَّ إنْسانٍ بِداخِلِها . وَغَدَتْ تَشُقُّ طَريقَها أفْضَلَ مِنْ أيِّ إنْسانٍ يُبْصِرُ بِعَيْنَيْهِ ؛ فَسَعِدَ والِداها وَحَمِدا اللَّهَ أنْ غَدَتِ ابْنَتُهُما قادِرَةً عَلى الاعْتِمادِ عَلى نَفْسِها بِلا مُعاوَنَةٍ ، بَلْ كانَتْ هِيَ الَّتي تُقَدِّمُ المُساعَدَةَ لِلآخَرينَ .

وَذاتَ يَوْمٍ سَمِعَتْ نورُ العيونِ صَهيلَ خُيولٍ تَأتي مِنْ بَعيدٍ ، تَدُقُّ

الأرْضَ بِحَوافِرِها ، وَتَجْري فَوْقَ الرِّمالِ مُسْرِعَةً ، فَيُسْمَعُ صَليلُ أسْلِحَةِ راكِبيها ، وَنَفيرُ المَوْكِبِ يُفْسِحُ الطَّريقَ أمامَ القادِمين ؛ فَأدْرَكَتْ أنَّ راكِبي الخُيولِ مِنَ الجُنودِ وَالمُحاربين ، وَأنَّ القادِمَ لا بُدَّ أنْ يَكونَ أميراً عَظيماً .

سَألَتْ نورُ العيونِ أمَّها عَنْ هُوِيَّةِ راكِبي الخُيولِ ، فَأجابَتْها بِأنَّهُمْ جُنودُ وَفُرْسانُ أميرِ البِلادِ ، وَأنَّهُمْ يَسْتَعِدّونَ لِحَفْلٍ عَظيمٍ بِمُناسَبَةِ انْتِصارِ أميرِ البِلادِ عَلى الأعْداءِ انْتِصاراً ساحِقاً ، وَرُجوعِهِ غانِماً مُظَفَّراً . وَسَوْفَ يَدْعو إلى حَفْلِهِ كُلَّ رِجالاتِ الدَّوْلَةِ ، وَالنُّبَلاءِ ، وَالأميراتِ ، والأمَراءِ ، وَأبْناءَ العائِلاتِ الكَريمَةِ مِنْ كُلِّ المَمالِكِ المجاوِرَةِ .

قالَتْ نورُ العُيونِ بِشَوْقٍ : « صِفي لِيَ الأميرَ ، يا أمّي .»

قالَتِ الأمُّ : « إنَّهُ شابٌّ لا مَثيلَ لَهُ في طولِ البِلادِ وَعَرْضِها ، فَهُوَ مَمْشوقُ القَدِّ ، قَوِيُّ السّاعِدِ . وَهُوَ أشْجَعُ الشُّجْعانِ ، إذا لَقِيَ الأعْداءَ دَحَرَهُمْ مَهْما زادَ عَدَدُهُمْ . وَهُوَ وَسيمُ الطَّلْعَةِ ، بَهِيُّ المُحَيّا ، كَأنَّهُ الشَّمْسُ المُشْرِقَةُ أوِ القَمَرُ المُنيرُ .»

فاضَتْ عَيْنا نورِ العُيونِ بِالدَّمْعِ وَهِيَ تُرَدِّدُ : « ما أبْدَعَ هذهِ الصِّفاتِ ! ما أجْمَلَ الأميرَ كَما وَصَفْتِهِ ، يا أمّي !»

وَانْصَرَفَتْ مَحْزونَةً إلى كوخِها ، وَالدُّموعُ تَنْهَمِرُ مِنْ عَيْنَيْها ، وَقالَتْ تُحَدِّثُ كَلْبَها حَديثًا ذا شُجونٍ : « آهٍ يا صَديقي مُخْلِص ! لَوْ لَمْ أَكُنْ فَتاةً فَقيرَةً عَمْياءَ ؛ لَدَعاني الأميرُ إلى حَفْلِهِ ، كَما دَعا الأميراتِ وَأَبْناءَ العائِلاتِ الكَريمَةِ . وَلكِنْ مَنْ كانَتْ مِثْلي لا يُمْكِنُ لأميرٍ أنْ يَدْعُوَها إلى حَفْلِهِ !»

وَفاضَتْ عَيْناها الخَضْراوانِ بِالدَّمْعِ الغَزيرِ ، فَتَأَلَّقَتا كَأَنَّهُما دُرَّتانِ أَوْ نَجْمَتانِ ، فَزَقْزَقَتِ العَصافيرُ القَريبَةُ في شَجَنٍ ، وَهَدَلَ الحَمامُ بِصَوْتٍ حَزينٍ شَجِيٍّ ، وَحَتّى مُخْلِص الكَلْبُ الوَفِيُّ نَبَحَ بِصَوْتٍ مُتَقَطِّعٍ كَأَنَّهُ الأَنينُ .

وَعِنْدَ الغُروبِ بَدَأَتْ تَهِلُّ مَواكِبُ النُّبَلاءِ وَالأَميراتِ صَوْبَ قَصْرِ الأَميرِ ، الَّذي يَقَعُ فَوْقَ التَّلِّ القَريبِ ، وَارْتَدَتْ كُلُّ أَميرَةٍ ثِيابَها ، وَتَحَلَّتْ بِأَغْلى حُلِيِّها ، وَتَعَطَّرَتْ بِأَذْكى عُطورِها ، فَبَدَتْ كُلٌّ مِنْهُنَّ كَالوَرْدَةِ النّاضِرَةِ الفَوّاحَةِ ، أَوِ النَّجْمَةِ المُتَأَلِّقَةِ السّاطِعَةِ .

وَاشْتَمَّتْ نورُ العُيونِ أَريجَ الأَميراتِ الحَسْناواتِ وَبَناتِ العائِلاتِ الكَريمَةِ ، وَسَمِعَتْ ضَحِكاتِهِنَّ فَعَرَفَتْ أَنَّهُنَّ يَقْصِدْنَ قَصْرَ الأَميرِ مَعَ ذَويهِمْ ، داخِلَ العَرَباتِ الَّتي تَجُرُّها الخُيولُ المُطَهَّمَةُ ، لِحُضورِ الحَفْلِ .



وَصاحَتْ إِحْدى الأَميراتِ في نورِ العُيونِ حينَ رَأَتْها تَقْتَرِبُ مِنْها : « ابْتَعِدي أَيَّتُها الفَتاةُ ؛ كَيْلا تَدْهَمَكِ عَرَبَتي ؛ فَتُؤَخِّريني عَنِ الذَّهابِ إلى حَفْلِ الأَميرِ !»

رَنَتْ نورُ العُيونِ إلى مَصْدَرِ صَوْتِ الأَميرَةِ وَلَمْ تُعَقِّبْ بِشَيْءٍ . وَتَأَمَّلَتِ الأَميرَةُ نورَ العُيونِ بِدَهْشَةٍ وَسَأَلَتْها : « وَلكِنْ مَنْ أَنْتِ أَيَّتُها الفَتاةُ ؟ وَلِمَ تَنْظُرينَ إِلَيَّ هكَذا بِمِثْلِ هذِهِ النَّظَراتِ ؟»

أَجابَها سائِقُ عَرَبَتِها : « إِنَّها فَتاةٌ ضَريرَةٌ ، يا سَيِّدَتي ، تُدْعى نورَ العُيونِ .»

ضَحِكَتِ الأميرَةُ بِسُخْرِيَّةٍ وَقالَتْ : « فَتاةٌ عَمْياءُ واسْمُها نورُ العُيونِ ! هذا أَعْجَبُ ما سَمِعْتُ وَرَأَيْتُ ! »

وأَطْلَقَتْ ضَحْكَةً ساخِرَةً مُجَلْجِلَةً ، وَهِيَ تَضَعُ يَدَها عَلى عِقْدِ اللُّؤْلُؤِ الأَسْوَدِ النّادِرِ النَّفيسِ ، الَّذي يَزينُ جيدَها ، فَضَحِكَتْ باقي الأَميراتِ الحَسْناواتِ ساخِراتٍ ، وَابْتَعَدْنَ بِعَرَباتِهِنَّ حَتّى لا يَتَأَخَّرْنَ عَنْ مَوْعِدِ حَفْلِ الأَميرِ .

تَرَقْرَقَتْ عَيْنا نورِ العُيونِ بِالدُّموعِ ، فَتَأَلَّقَتا بِالنّورِ كَأَنَّهُما نَجْمَتانِ تُشِعّانِ في الظَّلامِ ، ثُمَّ قالَتْ تُحادِثُ كَلْبَها مُخْلِص : « ما رَأْيُكَ ، يا كَلْبِيَ العَزيزَ ؟ إِنَّني أُريدُ أَنْ أَشْهَدَ حَفْلَ أَميرِ البِلادِ في قَصْرِهِ المُقامِ فَوْقَ التَّلِّ . »

نَبَحَ الكَلْبُ كَأَنَّهُ يَسْتَفْسِرُ عَنْ كَيْفِيَّةِ مُشاهَدَةِ الحَفْلِ ، وَهِيَ لَيْسَتْ مَدْعُوَّةً ؛ فَأَجابَتْهُ نورُ العُيونِ : « سَوْفَ نَتَسَلَّلُ إِلى القَصْرِ عَنْ طَريقِ نَفَقٍ في التَّلِّ يُؤَدّي إِلى سِرْدابٍ داخِلَ القَصْرِ ، لا يَعْرِفُ أَحَدٌ بِأَمْرِهِ ؛ فَقَدِ اكْتَشَفْتُهُ مُصادَفَةً ، عِنْدَما كُنْتُ أَرْتَقي التَّلَّ ذاتَ يَوْمٍ . وَهكَذا ، يا مُخْلِص ، تَراني مُصِرَّةً عَلى الذَّهابِ إِلى هُناكَ ؛ فَإِنّي أَتوقُ إِلى حُضورِ الحَفْلِ . وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لي عَيْنانِ لأَرى الأَميرَ ، فَسَوْفَ أَكْتَفي بِسَماعِ صَوْتِهِ ؛ فَلا بُدَّ أَنَّ لَهُ صَوْتاً رَخيماً ساحِراً ،

وَهذا شَيْءٌ طَبيعِيٌّ لِمَنْ هُوَ في مِثْلِ شَجاعَتِهِ وَقُوَّتِهِ ، وَذَكائِهِ وَحِكْمَتِهِ . »

نَبَحَ الكَلْبُ كَأَنَّهُ يُوافِقُ نورَ العُيونِ عَلى ما تَقولُ ، وَسارَ الاثْنانِ صَوْبَ التَّلِّ حَيْثُ يَقَعُ قَصْرُ الأَميرِ ، وَتُؤَدّي إِلَيْهِ دَرَجاتٌ نُحِتَتْ في التَّلِّ . وَهَبَطَ المَساءُ عَلى المَكانِ ، وَحَلَّتِ العَتَمَةُ في كُلِّ الأَرْجاءِ ، وَلكِنَّ نورَ العُيونِ لَمْ تَكُنْ بِحاجَةٍ إِلى الضَّوْءِ لِتَعْرِفَ طَريقَها ؛ فَقَدْ كانَتْ عَليمَةً بِمَسالِكِ الطَّريقِ كَأَنَّها تَراها ، وَيُمْكِنُها السَّيْرُ فيها بِلا مَشَقَّةٍ أَوْ دَليلٍ ، سَواءٌ كانَ ذلِكَ لَيْلاً أَوْ نَهاراً .

وَبَلَغَتْ نورُ العُيونِ وَكَلْبُها مُخْلِص قِمَّةَ التَّلِّ العالي الَّذي يَقَعُ قَصْرُ الأَميرِ فَوْقَهُ ، وَكانَ الوُصولُ إِلى فُتْحَةِ السِّرْدابِ في مُنْتَصَفِ التَّلِّ يَتَطَلَّبُ صُعوداً حَذِراً ؛ لانْحِدارِ التَّلِّ ، وَصُعوبَةِ صُخورِهِ وَوُعورَتِها ، وَالظَّلامِ المُحيطِ بِالمَكانِ . وَلكِنَّ نورَ العُيونِ لَمْ تَخْشَ أَيّاً مِنْ كُلِّ ذلِكَ ؛ لِحِذْقِها في مَعْرِفَةِ تَفاصيلِ المَكانِ ، وَدُرْبَتِها عَلى صُعودِ وَهُبوطِ التَّلِّ مِنْ قَبْلُ مِراراً وَتَكْراراً ، حَتّى حَفِظَتْ مَوْضِعَ كُلِّ صَخْرَةٍ فيهِ .

الْتَفَتَتْ نورُ العُيونِ لِكَلْبِها ، وَخاطَبَتْهُ مُحَذِّرَةً : « انْتَبِهْ في صُعودِكَ ، يا مُخْلِص ، وَإِلا زَلَّتْ قَدَمُكَ أَوْ جُرِحَ بَدَنُكَ . إِنَّنا لَسْنا

مِنَ المَدْعُوِّينَ لِحَفْلِ الأميرِ ؛ وَلِذا لا نَسْتَطيعُ اجْتِيازَ الطَّريقِ الآمِنِ مِنْ فَوْقِ الدَّرَجاتِ الَّتي يَسْتَخْدِمُها الأميرُ وَضُيوفُهُ لِصُعودِ التَّلِّ مِنَ الأمامِ ، حَتّى يَكونَ فُرْسانُ الأميرِ وَحاشِيَتُهُ في اسْتِقْبالِنا وَتَحِيَّتِنا .»

أجابَها كَلْبُها نابِحاً ، كَأَنَّما يُحَذِّرُها هُوَ الآخَرُ مِنَ الشَّيْءِ نَفْسِهِ ، وَأَنْ تَكونَ في ذٰلِكَ مِثْلَهُ . وَاسْتَطاعَ الاثْنانِ ارْتِقاءَ التَّلِّ مِنَ النّاحِيَةِ الخَلْفِيَّةِ بِلا مَشَقَّةٍ ، حَتّى وَصَلا مَدْخَلَ النَّفَقِ المُؤَدّي إلى سِرْدابِ القَصْرِ ، فَزَحَفا فيهِ وَسْطَ الظَّلامِ حَتّى بَلَغا مَدْخَلَ القَصْرِ . وَتَناهَتْ إلى أَسْماعِهِما أَصْواتُ الاحْتِفالِ مِنَ الدّاخِلِ ، وَحَديثُ الفُرْسانِ وَالنُّبَلاءِ وَكِبارِ رِجالِ الدَّوْلَةِ . وَسَمِعَتْ نورُ العُيونِ ضَحِكاتِ الحَسْناواتِ ، وَأَصْواتَ وَقْعِ نِعالِهِنَّ عَلى الأَرْضِ ، وَحَفيفَ أَثْوابِهِنَّ الغالِيَةِ عَلى البُسُطِ وَالفُرُشِ ، وَ اشْتَمَّتْ عَبيرَ عُطورِهِنَّ الثَّمينَةِ يَسْبَحُ في المَكانِ ، وَاسْتَطاعَتْ أَنْ تُحْصِيَهُنَّ دونَ مَشَقَّةٍ ، وَأَنْ تُقَدِّرَ عُمْرَ كُلِّ واحِدَةٍ ، مِنْ رَنينِ صَوْتِها .

اقْتَرَبَتْ نورُ العُيونِ مِنْ قاعَةِ الاحْتِفالِ ، وَكانَتْ مُضاءَةً بِآلافِ المَشاعِلِ وَالشُّموعِ الَّتي أَحالَتِ المَكانَ إلى نَهارٍ ، وَالخَدَمُ يَحْمِلونَ الشَّرابَ وَالعَصائِرَ وَماءَ الوَرْدِ ، وَيَمُرّونَ بِها بَيْنَ الحاضِرينَ .

رَنَتْ نورُ العُيونِ بِعَيْنَيْها مِنْ بَيْنِ سَتائِرِ البابِ ؛ فَأَدْرَكَتْ كُلَّ

ما يَدورُ في القاعَةِ بِعَقْلِها وَإِحْساسِها ، وَهَمَسَتْ لِكَلْبِها : « إنّي أَشْعُرُ بِكُلِّ ما يَجْرى هُنا ، يا كَلْبِيَ العَزيزُ ، وَأَسْتَطيعُ أَنْ أَصِفَهُ لَكَ ؛ فَهٰذِهِ القاعَةُ فَسيحَةٌ لِلْغايَةِ لاسْتيعابِها كُلَّ هٰذا الكَمِّ المُحْتَشِدِ ، وَاخْتِلاطِ الأَصْواتِ الكَثيرَةِ بِبَعْضِها بَعْضاً . وَهِيَ مُضاءَةٌ بِشُموعٍ وَمَشاعِلَ هائِلَةٍ ، وَهٰذا ما يَدُلُّ عَلَيْهِ الوَهَجُ الشَّديدُ الَّذي أَشْعُرُ بِهِ يَلُفُّ المَكانَ . وَلا بُدَّ أَنَّ الخَدَمَ يَقومونَ بِتَوْزيعِ أَقْداحِ الشَّرابِ عَلى المَدْعُوِّينَ وَالمَدْعُوّاتِ ؛ فَهٰذا ما تَقْتَضيهِ أُصولُ الضِّيافَةِ لِأَميرٍ كَريمٍ . كَما أَنَّني أَشُمُّ رائِحَةَ العَصائِرِ الفاخِرَةِ .»

وَفَجْأَةً سادَ الصَّمْتُ المَكانَ ، حينَ هَلَّ أَميرُ البِلادِ ، فَصَمَتَ الحاضِرونَ إِجْلالاً وَامْتَنَعَتْ أَصْواتُهُمْ . وَالْتَفَتَتْ نورُ العُيونِ إلى كَلْبِها ، وَقالَتْ هامِسَةً : « لا بُدَّ أَنَّ الأَميرَ دَخَلَ القاعَةَ ؛ فَمِثْلُ هٰؤُلاءِ الأَثْرِياءِ وَالنُّبَلاءِ لا يَصْمُتونَ إِكْباراً ، إِلّا إِذا حَلَّ بِالمَكانِ مَنْ هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُمْ شَأْناً .»

وَسَمِعَتْ نورُ العُيونِ صَوْتَ الأَميرِ وَهُوَ يَقولُ : « مَرْحَباً بِالحاضِرينَ مِنَ الأُمَراءِ وَالنُّبَلاءِ وَالأَميراتِ الحَسْناواتِ .»

اهْتَزَّتْ نورُ العُيونِ عِنْدَ سَماعِها صَوْتَ الأَميرِ ؛ فَقَدْ كانَ صَوْتاً قَوِيّاً يَشي بِرُجولَتِهِ وَشَجاعَتِهِ وَاعْتِزازِهِ بِنَفْسِهِ ، كَما كانَ هُدوءُ نَبَراتِهِ وَ وُضوحُها يَدُلّانِ عَلى كَمالِ أَخْلاقِهِ ، وَحِكْمَتِهِ واعْتِدادِهِ بِنَفْسِهِ .

وَتَرَقْرَقَتِ الدُّموعُ في عَيْنَيْ نورِ العُيونِ ، وَهَزَّ صَوْتُ الأميرِ كِيانَها ، فَقالَتْ لِنَفْسِها : « إنَّ صَوْتَ الأميرِ يُنْبِئُ بِما تَخَيَّلْتُهُ فيهِ ؛ شابًّا يافِعًا حَكيمًا . لَيْتَني أَسْتَطيعُ أَنْ أُبْصِرَ فَأَراهُ ! »

وَفَجْأَةً لَمَحَتْ إحْدى الأميراتِ نورَ العُيونِ ، وَكانَتْ هِيَ نَفْسُها الَّتي صادَفَتْها في الطَّريقِ ، ذاتَ عِقْدِ اللُّؤْلُؤِ الأَسْوَدِ ؛ فَصاحَتْ فيها غاضِبَةً : « أَيَّتُها العَمْياءُ ! هَلْ بَلَغَتْ بِكِ الجُرْأَةُ حُضورَ حَفْلِ الأميرِ بِدونِ إذْنِهِ ؟ وَكَيْفَ سَمَحَ لَكِ حُرّاسُ القَصْرِ بِالدُّخولِ ؟ »

جَفَلَتْ نورُ العُيونِ عِنْدَ سَماعِها صَوْتَ الأميرَةِ الحَسْناءِ ، وَ وَلَّتْ مُدْبِرَةً ، وَكَلْبُها خَلْفَها ، نَحْوَ فُتْحَةِ السِّرْدابِ الخَفِيِّ . وَصاحَ قائِدُ الحُرّاسِ في جُنودِهِ : « اقْبِضوا عَلى تِلْكَ المُتَسَلِّلَةِ وَاسْجُنوها ؛ فَلَعَلَّها جاءَتْ لإيذاءِ الأميرِ ! »

انْدَفَعَ الجُنودُ خَلْفَ نورِ العُيونِ وَلكِنَّها سَبَقَتْهُمْ مَعَ كَلْبِها ، وَاجْتازَتِ السِّرْدابَ الخَفِيَّ الَّذي لا يَعْلَمُ بِأَمْرِهِ أَحَدٌ ، وَتَمَكَّنَتْ مِنْ مُغادَرَةِ القَصْرِ دونَ أَنْ يَلْحَقَ بِها جُنودُ الأميرِ ، أَوْ يَعْرِفوا كَيْفَ تَسَلَّلَتْ إلى المَكانِ ، وَكَيْفَ خَرَجَتْ مِنْهُ . وَهَبَطَتْ نورُ العُيونِ التَّلَّ وَهِيَ تُجْهِشُ بِالبُكاءِ ، وَقالَتْ لِنَفْسِها مِنْ خِلالِ دُموعِها : « إنَّني لَسْتُ سِوى راعِيَةِ غَنَمٍ فَقيرَةٍ عَمْياءَ ، وَلَيْسَ لِيَ الحَقُّ حَتّى في رُؤْيَةِ

الأميرِ أَوْ حُضورِ حَفْلِهِ ! »

وَزادَ نَحيبُها وَارْتَجَفَ كُلُّ بَدَنِها مِنْ فَرْطِ حُزْنِها . وَجَلَسَتْ فَوْقَ صَخْرَةٍ أَسْفَلَ التَّلِّ وَبِجِوارِها كَلْبُها ، وَقَدْ سادَ الصَّمْتُ الحَزينُ المَكانَ ، وَكَأَنَّ كُلَّ الكائِناتِ تُشارِكُها مَشاعِرَها الشَّجِيَّةَ .

وَإنْ هِيَ سِوى لَحَظاتٍ حَتّى سَمِعَتْ نورُ العُيونِ أَصْواتًا بَعيدَةً مَكْتومَةً ؛ أَصْواتَ جِيادٍ رُبِطَتْ حَوافِرُها بِالقُماشِ حَتّى لا يَكونَ لِوَقْعِها دَوِيٌّ ، وَكُمِّمَتْ أَفْواهُها حَتّى لا يَكونَ لِصَهيلِها صَوْتٌ . وَأَخْفى راكِبوها أَسْلِحَتَهُمْ في صُدورِهِمْ ؛ حَتّى لا يَكونَ لِقَعْقَعَتِها رَنينٌ .

وَلكِنَّ نورَ العُيونِ اسْتَطاعَتْ سَماعَ الأَصْواتِ الخافِتَةِ المَكْتومَةِ ، رَغْمَ كُلِّ الاحْتِياطاتِ الَّتي اتَّخَذَها أَصْحابُها ، لِسَمْعِها الحادِّ ، وَقُدْرَتِها عَلى تَمْييزِ الأَصْواتِ مَهْما ضَعُفَتْ وَخَفَتَتْ .

وَاقْتَرَبَتِ الجِيادُ بِراكِبيها في سُكونٍ ، وَكانَ عَدَدُهُمْ ضَخْمًا ، يَزيدُ عَلى الأَلْفِ ، وَقَدِ اسْتَعَدّوا بِكُلِّ الأَسْلِحَةِ وَالعَتادِ ، وَاتَّشَحوا بِالمَلابِسِ السَّوْداءِ ، لا يَبينُ مِنْهُمْ شَيْءٌ في الظَّلامِ . وَاقْتَرَبوا مُتَسَلِّلينَ لا يَشْعُرُ بِهِمْ إنْسانٌ ، وَتَحَدَّثوا هَمْسًا كَيْلا يَسْمَعَهُمْ مَخْلوقٌ .

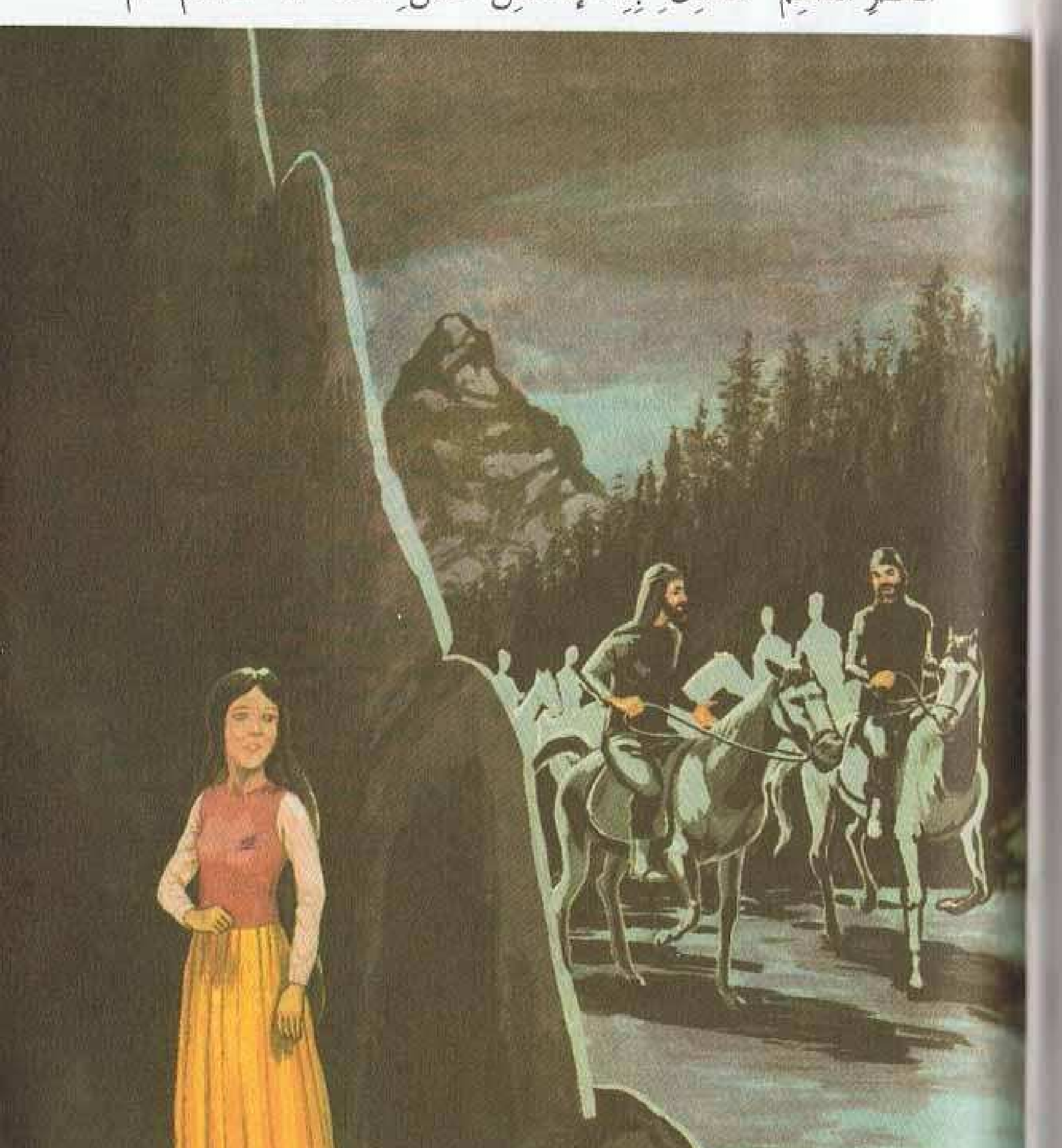
وَهَمَسَ زَعيمُ المُتَسَلِّلينَ بِصَوْتٍ خَفيضٍ : « حاصِروا التَّلَّ مِنَ الأمامِ ، وَامْنَعوا صُعودَ أَوْ هُبوطَ أَيِّ كائِنٍ ؛ حَتَّى نَقْبِضَ عَلى الأَميرِ وَكُلِّ قادَتِهِ وَعُظَماءِ بِلادِهِ وَفُرْسانِهِ وَهُمْ مُحاصَرونَ في قَصْرِهِ . وَمَنْ حاوَلَ مِنْهُمُ النُّزولَ لِمُلاقاتِنا صَرَعَتْهُ سِهامُنا قَبْلَ سُيوفِنا ؛ فَنَحْنُ أَسْفَلَ التَّلِّ في مَوْقِعٍ أَحْصَنَ ، وَالأَميرُ وَكُلُّ رِجالِ دَوْلَتِهِ وَفُرْسانِهِ في القَصْرِ أَشْبَهُ بِالفَأْرِ الَّذي وَقَعَ في فَخٍّ أَوْ مِصْيَدَةٍ . »

قالَ أَحَدُ الجُنودِ : « إِنَّها لَفِكْرَةٌ رائِعَةٌ أَيُّها الزَّعيمُ ؛ فَقَدْ أَغْرَيْنا الأَميرَ بِتَظاهُرِنا بِالهَزيمَةِ وَالانْسِحابِ أَمامَهُ ، فَعادَ مُنْتَشِيًا مَسْرورًا بِالنَّصْرِ ، في حينِ زَحَفْنا نَحْنُ وَعَبَرْنا حُدودَ البِلادِ في خِفْيَةٍ ، وَدونَ أَنْ يَشْعُرَ بِنا إِنْسانٌ ؛ لِنُحاصِرَ الأَميرَ في قَصْرِهِ وَهُوَ يَحْتَفِلُ بِنَصْرِهِ ، فَنَأْسِرَهُ أَوْ نَقْتُلَهُ هُوَ وَكُلَّ فُرْسانِهِ وَرِجالِ دَوْلَتِهِ ، وَنَسْتَوْلِيَ عَلى البِلادِ وَنَنْهَبَ كُلَّ خَيْراتِها ، وَنُذيقَ أَهْلَها مِنَ العَذابِ أَلْوانًا دونَ أَنْ يَجْرُؤَ إِنْسانٌ عَلى الوُقوفِ في مُواجَهَتِنا . »

تَراجَعَتْ نورُ العُيونِ مَذْهولَةً مِنْ هَوْلِ ما سَمِعَتْ ، وَعَرَفَتْ أَنَّ أولئِكَ المُتَسَلِّلينَ مِنَ الأَعْداءِ قَدْ خَدَعوا الأَميرَ بِحيلَةٍ ماكِرَةٍ ، بَعْدَ تَظاهُرِهِمْ بِالانْسِحابِ أَمامَهُ ، ثُمَّ تَسَلُّلِهِمْ إِلى داخِلِ البِلادِ لِحِصارِهِ ، وَأَنَّهُمْ موشِكونَ عَلى أَسْرِهِ وَقَتْلِهِ هُوَ وَكُلِّ رِجالِ الدَّوْلَةِ وَنُبَلائِها وَفُرْسانِها ، بَعْدَ حِصارِهِمْ في القَصْرِ فَوْقَ التَّلِّ . فَإِنْ لَمْ

يَتَنَبَّهِ الأَميرُ لِما يُدَبِّرُهُ الأَعْداءُ ؛ فَإِنَّهُ هالِكٌ لا مَحالَةَ .

هَمَسَتْ نورُ العُيونِ لِكَلْبِها : « هَيّا يا مُخْلِص ؛ لِنُحَذِّرَ الأَميرَ مِنَ الخَطَرِ الدّاهِمِ المُحْدِقِ بِهِ . إِنَّهُ لَمِنْ حُسْنِ الحَظِّ أَنَّ الظَّلامَ لَمْ



يَكْشِفْنا لِهَؤلاءِ الأعْداءِ ، وَأعْمى عُيونَهُمْ عَنّا ، في حين أنّنا كَشَفْناهُمْ وَسَمِعْناهُمْ . وَلكِنْ حَذارِ مِنَ النُّباحِ ، وَإلّا عَرَفوا مَكانَنا !»

وَتَسَلَّلَتْ نورُ العيونِ في خِفَّةِ الطَّيْرِ وَسُرْعَةِ الرّيحِ ، وَخَلْفَها كَلْبُها مُخْلِص ، وَتَسَلَّقا التَّلَّ مِنَ الخَلْفِ صاعِدَيْنِ مَرَّةً أُخْرى إلى النَّفَقِ ، دونَ أنْ يَتَنَبَّهَ لَهُما الأعْداءُ ؛ لِدِرايَتِهِما التّامَّةِ بِالمَكانِ .

وَصَلَتْ نورُ العُيونِ وَكَلْبُها إلى فُتْحَةِ النَّفَقِ ، فَزَحَفا داخِلَ السِّرْدابِ المُؤَدّي إلى القَصْرِ . وَكانَ جُنودُ الأميرِ قَدِ انْصَرَفوا عَنِ الحِراسَةِ دونَ أنْ يَكْتَشِفوا فُتْحَتَهُ الخَفِيَّةَ ، بَعْدَ يَأسِهِمْ مِنَ العُثورِ عَلى نورِ العُيونِ .

تَسَلَّلَتْ نورُ العُيونِ عَبْرَ السِّرْدابِ ، وَ وَقَفَتْ في نِهايَتِهِ تَتَنَصَّتُ ، وَلكِنَّها لَمْ تَسْمَعْ صَوْتَ إنْسانٍ ، فَأمِنَتْ وَاطْمَأنَّتْ ، وَاتَّجَهَتْ إلى قاعَةِ الاحْتِفالِ . وَكانَ الصَّخَبُ وَالضَّجيجُ فيها يُصِمّانِ الآذانَ ، وَالجَميعُ في حُبورٍ وَهُمْ يَتَناوَلونَ الطَّعامَ ، غافِلينَ عَمّا يَتَرَبَّصُ بِهِمْ مِنْ أخْطارٍ .

سَمِعَتْ نورُ العُيونِ وَقْعَ المَلاعِقِ وَالكُئوسِ عَلى الصُّحونِ ، وَصَوْتَ الأفْواهِ وَهِيَ تَأكُلُ وَتَشْرَبُ ، فَقالَتْ لِكَلْبِها هامِسَةً : « إنَّ

الجَميعَ يَأكُلونَ وَيَشْرَبونَ وَهُمْ مُنْشَرِحونَ ؛ فَيَجِبُ ألا نُعَكِّرَ صَفْوَهُمُ الآنَ بِإبْلاغِهِمُ الأنْباءَ السَّيِّئَةَ ، وَلْنَنْتَظِرْ حَتّى يَفْرَغَ الأميرُ مِنْ تَناوُلِ طَعامِهِ ثُمَّ نَقُمْ بِتَحْذيرِهِ ؛ فَإنَّ إخْبارَ النّاسِ بِالأمورِ السَّيِّئَةِ وَهُمْ يَأكُلونَ أمْرٌ لا يَليقُ .»

هَزَّ مُخْلِص ذَيْلَهُ ، كَأنَّهُ يُصَدِّقُ عَلى ما قالَتْهُ صاحِبَتُهُ .

وَفَجْأةً لَمَحَ قائِدُ الحَرَسِ نورَ العُيونِ وَهِيَ مُخْتَبِئَةٌ خَلْفَ السَّتائِرِ ، في مَدْخَلِ القاعَةِ ، فَاقْتَرَبَ مِنْها مُحاذِرًا لِيَقْبِضَ عَلَيْها ، ثُمَّ أمْسَكَ بِمِعْصَمِها وَصاحَ فيها : « لَقَدْ قَبَضْتُ عَلَيْكِ أخيرًا أيَّتُها المُتَسَلِّلَةُ ، وَلَسَوْفَ يَكونُ مَصيرُكِ أسْوَأَ مَصيرٍ .»

وَحينَ سَمِعَ الحُضورُ صِياحَ قائِدِ الحَرَسِ ، الْتَفَتوا بِدَهْشَةٍ ، فَشاهَدوا نورَ العُيونِ وَهِيَ تُحاوِلُ التَّخَلُّصَ مِنْ قَبْضَةِ القائِدِ . وَصاحَتِ الأميرَةُ ذاتُ عِقْدِ اللُّؤْلُؤِ الأسْوَدِ : « إنَّها الفَتاةُ العَمْياءُ ! يا لَلْفَتاةِ البائِسَةِ الَّتي تُصِرُّ عَلى حُضورِ حَفَلاتِ الأمَراءِ وَإفْسادِها ! فَلْتَضَعْها في السِّجْنِ أيُّها القائِدُ ؛ عِقابًا لَها عَلى ما فَعَلَتْ .»

أوْشَكَ قائِدُ الحَرَسِ أنْ يُطيعَ أمْرَ الأميرَةِ ، غَيْرَ أنَّ إشارَةَ الأميرِ كَفَّتْهُ عَنْ أنْ يَفْعَلَ .

نَهَضَ الأميرُ مِنْ مَقْعَدِهِ وَاقْتَرَبَ مِنْ نورِ العُيونِ ، وَتَأمَّلَ وَجْهَها

الجميلَ وَعيْنيْها الخضْراوَيْن ، وَسَألها مُتعَجّبًا : « أ صَحيحٌ أنّكِ لا تُبْصِرينَ أيّتُها الفَتاةُ ، رَغْمَ سِحْرِ عَيْنَيْكِ اللّتيْنِ لا مَثيلَ لِرَوْعَتِهِما ؟ »

أحْنَتْ نورُ العُيونِ رَأسَها إجْلالاً ، وَقالَتْ : « مَوْلايَ الأمير ، إنّها إرادَةُ اللّهِ الّذي لا رادَّ لِقَضائِهِ ؛ فَلا تَتَعَجَّبْ . فَفي أحْيانٍ كَثيرَةٍ ، تُواجِهُنا أمورٌ نَعْيا عَنْ إدْراكِ الحِكْمَةِ في قَضاءِ اللهِ فيها . »

سَألَها الأميرُ : « وَكَيْفَ عَرَفْتِ أنّني الأميرُ دونَ أنْ تَريْني أوْ يُخْبِرَكِ بِذلِكَ إنْسانٌ ؟ »

أجابَتْهُ نورُ العُيونِ : « إنَّ صَوْتَكَ ، يا سَيِّدي ، يَشي بِأنَّكَ الأميرُ ، وَأيْضاً فَإنَّكَ حينَ تَحَدَّثْتَ صَمَتَ الجَميعُ ، وَالنّاسُ لا يَصْمُتونَ احْتِراماً إلّا عِنْدَما يَتَحَدَّثُ الأمَراءُ وَالعُظَماءُ . » فَتَعَجَّبَ الأميرُ مِنْ حِدَّةِ ذَكاءِ نورِ العُيونِ وَدِقَّةِ مُلاحَظَتِها .

أضافَتْ نورُ العُيونِ في اضْطِرابٍ : « مَوْلايَ الأميرَ ، إنَّ ثَمَّةَ خَطَرًا عَظيماً يَتَرَبَّصُ بِكَ أسْفَلَ التَّلِّ ؛ فَأعْداءُ البِلادِ يُحاصِرونَ المَكانَ وَهُمْ مُدَجَّجونَ بِالسِّلاحِ ، وَيَعْتَزِمونَ قَتْلَكَ وَكُلَّ عُظَماءِ الدَّوْلَةِ وَفُرْسانِها ، مَتى انْتَهى الحَفْلُ وَهَمَّ الجَميعُ بِالانْصِرافِ . »

سَألَها الأميرُ بِدَهْشَةٍ : « هَلْ تَقولينَ الأعْداءَ ؟ وَلكِنَّني قَضَيْتُ عَلى أعْداءِ البِلادِ ، وَبَدَّدْتُ شَمْلَهُمْ ، وَانْتَصَرْتُ عَلَيْهِمْ انْتِصاراً

ساحِقاً . »

رَدَّتْ نورُ العُيونِ : « لَقَدْ تَظاهَروا بِالهَزيمَةِ أمامَكَ أيُّها الأميرُ ؛ حَتّى يَتَمَكَّنوا مِنْ خِداعِكَ وَعُبورِ الحُدودِ وَنِقاطِ التَّفْتيشِ بِسُهولَةٍ ، فَيُحاصِروا قَصْرَكَ بِكُلِّ مَنْ فيهِ . وَقَدِ احْتاطَ هَؤلاءِ الأعْداءُ الماكِرونَ لِلأمْرِ ، فَرَبَطوا أفْواهَ جِيادِهِمْ ؛ حَتّى لا يَكونَ لِصَهيلِها صَوْتٌ ، وَأخْفَوْا أسْلِحَتَهُمْ في صُدورِهِمْ ؛ حَتّى لا يَكونَ لِقَعْقَعَتِها رَنينٌ يَنُمُّ عَلَيْها . وَساعَدَهُمْ انْتِشارُ اللَّيْلِ وَخُبْثُ تَدْبيرِهِمْ عَلى عُبورِ نِقاطِ الحِراسَةِ وَالتَّفْتيشِ دونَ أنْ يُحِسَّ بِهِمْ إنْسانٌ . إنَّهُمْ قَوْمٌ ماكِرونَ لَمْ يَقْدِروا عَلى مُواجَهَتِكَ وَهَزيمَتِكَ في شَجاعَةٍ ؛ فَلَجَئوا إلى الحيلَةِ الدَّنيئَةِ . »

ازْدادَتْ دَهْشَةُ الأميرِ ، وَسَألَها : « وَلكِنْ كَيْفَ عَرَفْتِ كُلَّ ذَلِكَ ، دونَ أنْ تُشاهِديهِ ؟ »

أجابَتْهُ نورُ العُيونِ : « لَقَدْ سَمِعْتُهُمْ حينَ قُدومِهِمْ ، يا مَوْلايَ الأميرَ ، وَأنا أسْتَطيعُ الْتِقاطَ الأصْواتِ وَتَمْييزَها مَهْما خَفَتَتْ ؛ فَأقْدامُ الجِيادِ مَهْما رُبِطَتْ بِالقُماشِ يَكُنْ لَها فَوْقَ الأرْضِ وَقْعٌ . وَأفْواهُ الجِيادِ مَهْما كُمِّمَتْ يَكُنْ لِتَنَفُّسِها صَوْتٌ خاصٌّ وَرائِحَةٌ مُمَيَّزَةٌ . وَالأسْلِحَةُ مَهْما أخْفَيْتَ بَيْنَ طَيّاتِ المَلابِسِ يَكُنْ لاحْتِكاكِها بِالقُماشِ رَنينٌ . وَقَدْ عَرَفْتُ غَرَضَهُمْ مِنْ خِلالِ

تخافُتِهِمْ .»

هَتَفَ الأميرُ بِذُهولٍ : « هَذا عَجيبٌ ! عَجيبٌ جِدًّا ! لَمْ أَسْمَعْ عَنْ إِنْسانٍ لَهُ مِثْلُ هذهِ المَقْدِرَةِ العظيمَةِ . كَيْفَ اسْتَطاعَ هَؤلاءِ الأَعْداءُ التَّخَفِّيَ عَنْ عُيونِ جُنودِ وَفُرْسانِ الحُدودِ وَنِقاطِ التَّفْتيشِ ، وَأَمْكَنَ لِفَتاةٍ لا تُبْصِرُ أَنْ تَراهُمْ وَتَشْعُرَ بِهِمْ ؟»

صاحَتِ الأميرَةُ ذاتُ عِقْدِ اللُّؤلُؤِ الأَسْوَدِ مُغْتاظَةً : « إِنَّها فَتاةٌ كاذِبَةٌ أَيُّها الأميرُ ، فَكَيْفَ تُصَدِّقُها ؟ إِنَّها تُريدُ أَنْ تَشْغَلَنا بِقِصَّةٍ مُخْتَلَقَةٍ ؛ حَتَّى تُفْسِدَ حَفْلَنا ، فَهِيَ لَيْسَتْ سِوى فَتاةٍ عَمْياءَ بائِسَةٍ ، لا يُمْكِنُها أَنْ تُحِسَّ وَتَشْعُرَ بِما لَمْ يَرَهُ وَيَشْعُرْ بِهِ المُبْصِرونَ .»

وَصَدَّقَ بَقِيَّةُ الحاضِرينَ وَالحاضِراتِ عَلى كَلامِها بِقَوْلِهِمْ : « نَعَمْ ، نَعَمْ . ضَعْها في السِّجْنِ أَيُّها الأميرُ . إِنَّها تَبْدو كاذِبَةً . كَيْفَ يُمْكِنُ لِعَمْياءَ أَنْ يَكونَ لَها مِثْلُ هَذِهِ المَقْدِرَةِ الَّتي لا يَمْلِكُها المُبْصِرونَ ؟»

تَرَدَّدَ الأميرُ لِلَحْظَةٍ ، وَنَظَرَ إِلى نورِ العُيونِ مُتَشَكِّكًا ، فَرَأى في عَيْنَيْها الجَميلَتَيْنِ الصَّفاءَ وَالنَّقاءَ ، فَرَدَّدَ في نَفْسِهِ : « هاتانِ عَيْنانِ لا يُمْكِنُ لِصاحِبَتِهِما الكَذِبُ أَبَدًا ؛ فَالعَيْنُ مِرْآةٌ لِنَفْسِ صاحِبِها ، يَنْعَكِسُ فيها الخَيْرُ كَما يَبينُ فيها الشَّرُّ .»

وَهَتَفَ في قائِدِ فُرْسانِهِ : « أَيُّها القائِدُ ، لِنَقْطَعِ الشَّكَّ بِاليَقينِ ، وَلْنُلْقِ نَظْرَةً فاحِصَةً إِلى أَسْفَلِ التَّلِّ . فَمَهْما بالَغَ هَؤلاءِ الأَعْداءُ في حَذَرِهِمْ وَتَخَفّيهِمْ ، فَلا بُدَّ أَنَّ النَّظْرَةَ المُتَفَحِّصَةَ سَتَكْشِفُهُمْ وَتُبَيِّنُ مَقْصِدَهُمْ .»

حَنى القائِدُ رَأْسَهُ ، وَأَسْرَعَ لِتَنْفيذِ ما أَمَرَهُ بِهِ الأميرُ ، ثُمَّ عادَ مُهَرْوِلاً وَقَدِ ارْتَسَمَ الفَزَعُ عَلى وَجْهِهِ وَهُوَ يَقولُ : « إِنَّ الأَمْرَ كَما قالَتْ تِلْكَ الفَتاةُ أَيُّها الأميرُ ؛ فَهُناكَ جَيْشٌ جَرّارٌ مِنَ الأَعْداءِ مُتَّشِحٌ بِالسَّوادِ ، وَيُحيطُ بِالتَّلِّ مِنَ الأَمامِ ، وَيَسْتَحيلُ مُغادَرَةُ القَصْرِ أَوْ هُبوطُ التَّلِّ دونَ مُلاقاتِهِ . وَلَسْنا سِوى عَدَدٍ قَليلٍ مِنَ الجُنودِ وَالفُرْسانِ ، لا يَزيدُ عَلى الخَمْسينَ ، وَبِالقَطْعِ لَنْ نَصْمُدَ أَمامَ كَثْرَةِ الأَعْداءِ وَسِلاحِهِمْ إِذا ما هاجَمونا بَعْدَ انْتِهاءِ الحَفْلِ . إِنَّ الأَمْرَ جِدُّ سَيِّئٍ يا مَوْلايَ ، وَلَنْ يُمْكِنَنا إِبْلاغُ الجَيْشِ حَتّى يَهُبَّ إِلى نَجْدَتِنا ؛ لأَنَّهُ بَعيدٌ عَنِ القَصْرِ . وَأَخْشى أَنْ يُباغِتَنا الأَعْداءُ وَيَنْقَضّوا عَلَيْنا قَبْلَ وُصولِ الإِمْداداتِ إِلَيْنا .»

وَلَمّا سَمِعَ المَدْعُوّونَ وَالمَدْعُوّاتُ حَديثَ قائِدِ الحَرَسِ ، صَرَخوا فَزِعينَ وَسادَ المَكانَ اضْطِرابٌ عَظيمٌ وَهَرْجٌ وَمَرْجٌ . وَ وَقَفَ الأميرُ صامِتًا يُفَكِّرُ في الخَطَرِ المُحْدِقِ بِهِ وَضُيوفِهِ ، وَأَدْرَكَ أَنَّ مَوْقِفَهُ صَعْبٌ لِلْغايَةِ ؛ فَمَهْما كانَتْ شَجاعَتُهُ وَجُرْأَةُ جُنودِهِ ، فَإِنَّ فُرْسانَهُ قَليلو

العَدَدِ وَالعُدَّةِ ، وَلَنْ يَسْتَطيعوا مُواجَهَةَ جَيْشٍ جَرّارٍ مِنَ الأَعْداءِ ، قِوامُهُ أَلْفُ رَجُلٍ ، أَوِ التَّغَلُّبَ عَلَيْهِمْ .

وَتَعالى صُراخُ وَعَويلُ الأَميراتِ الحَسْناواتِ ، فَصاحَ الأَميرُ يَأْمُرُهُنَّ بِالصَّمْتِ ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلى نورِ العُيونِ وَكانَتْ مُنْتَصِبَةً في شَجاعَةٍ ، لَمْ يَتَطَرَّقِ الخَوْفُ إِلى قَلْبِها ، وَقالَ لَها : « أَيَّتُها الفَتاةُ الحَكيمَةُ الذَّكِيَّةُ ، قَدْ تَكونُ نَجاتُنا عَلى يَدَيْكِ ؛ فَأَخْبِريني كَيْفَ اسْتَطَعْتِ دُخولَ القَصْرِ وَالخُروجَ مِنْهُ دونَ أَنْ يَلْحَظَكِ الأَعْداءُ أَوْ يَشْعُروا بِكِ ، رَغْمَ مُحاصَرَتِهِمْ لِمَكانِ الصُّعودِ وَالهُبوطِ في التَّلِّ مِنَ الأَمامِ ؟»

أَجابَتْهُ نورُ العُيونِ : « لَقَدْ تَسَلَّلْتُ إِلى القَصْرِ مِنْ خَلْفِ التَّلِّ ، خِلالَ سِرْدابٍ سِرِّيٍّ يوصِلُ إِلى نَفَقٍ في مُنْتَصَفِ التَّلِّ ، وَهُوَ مَكانٌ لَمْ يُحاصِرْهُ الأَعْداءُ لِظَنِّهِمُ اسْتِحالَةَ أَنْ يَرْتَقِيَهُ إِنْسانٌ نَظَرًا لِصُعوبَتِهِ وَوُعورَتِهِ وَصُخورِهِ الحادَّةِ المَلْساءِ ؛ فَمَنْ زَلَّتْ قَدَماهُ مِنْ فَوْقِهِ هَوى لأَسْفَلُ ، وَارْتَطَمَ بِالصُّخورِ ، وَلَقِيَ مَصْرَعَهُ في الحالِ .»

دَهِشَ الأَميرُ وَسَأَلَ نورَ العُيونِ : « إِذا كانَ الأَمْرُ بِمِثْلِ هٰذِهِ الخُطورَةِ ، فَكَيْفَ أَمْكَنَكِ صُعودُ ذٰلِكَ الجُزْءِ مِنَ التَّلِّ وَارْتِقاؤُهُ ، وَأَنْتِ لا تَرَيْنَ حَتّى مَوْطِئَ قَدَمَيْكِ ؟»

أَجابَتْهُ : « مَنْ كانَ مِثْلي أَيُّها الأَميرُ ، وَجَبَ عَلَيْهِ الاعْتِمادُ عَلى حَواسِهِ الأُخْرى ؛ فَالبَصَرُ لَيْسَ الحاسَّةَ الوَحيدَةَ الَّتي مَنَحَها اللّٰهُ لِلإِنْسانِ ؛ لِيَعْتَمِدَ عَلَيْها في تَدْبيرِ شُئونِهِ وَحَياتِهِ . فَثَمَّةَ حَواسٌّ أُخْرى يُمْكِنُ لِلإِنْسانِ أَنْ يُعَوِّضَ بِها الحاسَّةَ المَفْقودَةَ لَدَيْهِ ، وَمِنْ ثَمَّ لا يَشْعُرُ بِأَيِّ نَقْصٍ .»

شَرَدَ الأَميرُ بِفِكْرِهِ هُنَيْهَةً ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلى الحاضِرينَ قائِلاً : « سَأُغادِرُ القَصْرَ مِنْ خِلالِ النَّفَقِ وَالسِّرْدابِ ، ثُمَّ أَهْبِطُ التَّلَّ مِنَ الخَلْفِ مَهْما كانَ طَريقُ الهُبوطِ خَطِرًا أَوْ وَعْرًا ، وَسَأَتَّجِهُ رَأْسًا إِلى مَقَرِّ جَيْشي وَأَسْتَدْعيهِ عَلى وَجْهِ السُّرْعَةِ لِنِزالِ الأَعْداءِ ، قَبْلَ أَنْ يُفَكِّروا في صُعودِ التَّلِّ . وَعَلَيْكُمْ جَميعًا التَّحَلّي بِالصَّبْرِ وَالهُدوءِ لِحينِ وُصولِ النَّجْدَةِ .»

وَالْتَفَتَ إِلى نورِ العُيونِ قائِلاً : « وَالآنَ دَعينا نُغادِرِ المَكانَ بِطَريقَتِكِ الخاصَّةِ أَيَّتُها الفَتاةُ الشُّجاعَةُ . هَيّا فَلا وَقْتَ لَدَيْنا .»

أَسْرَعَتْ نورُ العُيونِ نَحْوَ مَدْخَلِ السِّرْدابِ وَالأَميرُ خَلْفَها ، وَمِنْ وَرائِهِما الكَلْبُ مُخْلِص ، وَعَبَرَ الثَّلاثَةُ السِّرْدابَ وَالنَّفَقَ زاحِفينَ ، حَتّى وَصَلوا إِلى فُتْحَةِ النَّفَقِ . وَانْكَشَفَ لِعَيْنِ الأَميرِ جُنودُ الأَعْداءِ عَلى ظُهورِ جِيادِهِمْ أَسْفَلَ التَّلِّ ، وَهُمْ مُتَّشِحونَ بِالسَّوادِ ، انْتِظارًا

لِلَحْظَةِ الهُجومِ بَعْدَ انْتِهاءِ الحَفْلِ .

وَحَثَّ الأميرُ نورَ العُيونِ قائِلاً : « لِنُسْرِعْ بِالهُبوطِ لاسْتِدْعاءِ الجَيْشِ ؛ فَلَيْسَ لَدَيْنا مُتَّسَعٌ مِنَ الوَقْتِ . »

قالَتْ : « اتْبَعْني ، يا مَوْلايَ الأميرَ ، وَكُنْ حَذِرًا في هُبوطِكَ . »

وَأَخَذَتْ نورُ العُيونِ تَهْبِطُ التَّلَّ في حَذَرٍ وَثِقَةٍ ، رَغْمَ مَشَقَّةِ الهُبوطِ وَحِدَّةِ الصُّخورِ ، وَالأميرُ يَتْبَعُها مُتَعَجِّبًا وَهُوَ يَراها تَهْبِطُ أَمْهَرَ مِنْ أَيِّ مُبْصِرٍ .

وَرَدَّدَ في نَفْسِهِ : « يا لَها مِنْ فَتاةٍ شُجاعَةٍ حَكيمَةٍ ! »

وَفَجْأَةً صاحَتْ نورُ العُيونِ في الأميرِ : « حاذِرْ أَيُّها الأميرُ ، وَانْظُرْ أَيْنَ تَضَعُ قَدَمَيْكَ . »

نَظَرَ الأميرُ إلى مَوْطِئِ قَدَمَيْهِ فَرَأى هُوَّةً سَحيقَةً ، وَعَرَفَ أَنَّهُ لَوْلا تَحْذيرُ نورِ العُيونِ لَسَقَطَ في الهُوَّةِ دونَ أَنْ يَلْحَظَها . وَنَظَرَ دَهِشًا إلى نورِ العُيونِ ، وَلِسانُ حالِهِ يَقولُ كَيْفَ أَدْرَكَتْ أَنَّهُ يَكادُ يَسْقُطُ في الهُوَّةِ دونَ أَنْ تَراهُ ، فَأَجابَتْهُ قَبْلَ أَنْ يَنْطِقَ بِسُؤالِهِ قائِلَةً : « عِنْدَما سَمِعْتُ صَوْتَ خُطُواتِكَ تُسْرِعُ خَلْفي ، أَدْرَكْتُ أَنَّكَ فَقَدْتَ حَذَرَكَ ، وَأَنا أَعْرِفُ أَنَّ في هَذا المَكانِ هُوَّةً عَميقَةً ، يَسْقُطُ فيها مَنْ لا يَنْتَبِهُ إِلَيْها ؛ لِذا فَقَدْ حَذَّرْتُكَ في الوَقْتِ المُناسِبِ . وَفَطِنْتُ إلى

أَنَّكَ سَتَدْهَشُ مِنْ تَحْذيري إِيّاكَ ، فَأَجَبْتُكَ قَبْلَ أَنْ تَنْطِقَ بِسُؤالِكَ . »

ازْدادَ الإِعْجابُ في عَيْنَي الأميرِ ، وَقالَ لِنورِ العُيونِ : « إِنَّكِ فَتاةٌ ذَكِيَّةٌ ، شَديدَةُ الإِدْراكِ . وَإِنْ كانَ اللَّهُ حَرَمَكِ مِنْ نِعْمَةِ البَصَرِ ، فَقَدْ أَنارَ قَلْبَكِ بِالمَعْرِفَةِ وَالذَّكاءِ وَالحِكْمَةِ ، عِوَضًا عَنْ عَيْنَيْكِ . »

سَعِدَتْ نورُ العُيونِ بِمَديحِ الأميرِ لَها ، وَأَسْرَعَتْ هابِطَةً وَالأميرُ خَلْفَها ، حَتّى بَلَغا أَسْفَلَ التَّلِّ وَمَعَهُما الكَلْبُ مُخْلِص ، دونَ أَنْ يَشْعُرَ بِهِمُ الأَعْداءُ ؛ لانْتِشارِ الظَّلامِ بِالمَكانِ .

وَهَمَسَ الأميرُ لِنورِ العُيونِ قائِلاً : « سَأَسْتَوْلي عَلى أَحَدِ خُيولِ الأَعْداءِ دونَ أَنْ يَشْعُرَ بي أَحَدٌ ، ثُمَّ أَنْطَلِقُ بِهِ إِلى جَيْشي فَأَسْتَدْعيهِ في الحالِ لِحِصارِ الأَعْداءِ وَأَسْرِهِمْ . »

وَلَكِنْ تَناهى إِلى سَمْعِ الأميرِ في اللَّحْظَةِ نَفْسِها صَوْتُ زَعيمِ الأَعْداءِ وَهُوَ يَقولُ لِجُنودِهِ : « لَقَدْ حانَ الوَقْتُ لِهُجومِنا ؛ إِذْ يَبْدو أَنَّ حَفْلَ الأميرِ قَدِ انْتَهى ؛ فَقَدْ خَفَتَتْ حِدَّةُ الضَّجَّةِ في القَصْرِ . فَدَعونا نُسْرِعْ بِارْتِقاءِ التَّلِّ وَالهُجومِ عَلى الأميرِ وَمَنْ مَعَهُ فَنُبيدَهُمْ جَميعًا ، وَبِذَلِكَ يَسْهُلُ عَلَيْنا احْتِلالُ البِلادِ . »

شَحَبَ وَجْهُ الأميرِ وَقالَ : « يَبْدو أَنَّنا تَأَخَّرْنا . سَيُهاجِمُ الأَعْداءُ القَصْرَ وَيَقْتُلونَ مَنْ فيهِ ، وَلَكِنَّني لَنْ أَسْمَحَ بِذَلِكَ أَبَدًا . سَأُقاتِلُهُمْ

بِمُفْرَدي .»

وَاسْتَلَّ سَيْفَهُ وَكادَ يَنْدَفِعُ لِمُلاقاتِهِمْ ، لَوْلا أَنْ أَمْسَكَتْ نورُ العُيونِ بِذِراعِهِ وَهِيَ تَقولُ ناصِحَةً : « أَيُّها الأَميرُ ، إِنَّكَ بِذَلِكَ تُلْقي بِنَفْسِكَ إِلى التَّهْلُكَةِ . فَمَهْما كانَتْ شَجاعَتُكَ وَقُوَّتُكَ ، فَسَوْفَ يَتَغَلَّبُ عَلَيْكَ الأَعْداءُ ؛ فَالكَثْرَةُ تَغْلِبُ الشَّجاعَةَ ، وَالإِنْسانُ الحَكيمُ لا يَلْجَأُ لِلْقُوَّةِ إِنْ كانَ فيها هَلاكُهُ ، بَلْ يَسْتَعينُ بِالحيلَةِ لَوْ كانَ فيها خَلاصُهُ وَنَجاتُهُ . إِنَّ لَدَيَّ حيلَةً لَعَلَّها تَكونُ سَديدَةً ، وَقَدْ يَكونُ فيها نَجاتُنا جَميعًا ، وَإِبادَةُ الأَعْداءِ .»

سَأَلَها الأَميرُ بِاهْتِمامٍ : « ما هِيَ تِلْكَ الحيلَةُ ؟»

أَجابَتْهُ نورُ العُيونِ : « بِالقُرْبِ مِنْ هَذا المَكانِ توجَدُ أَرْضُ الرِّمالِ المُتَحَرِّكَةِ ، وَهِيَ أَرْضٌ رَهيبَةٌ تَبْتَلِعُ أَيَّ كائِنٍ يَسْقُطُ فيها فَلا يَخْرُجُ مِنْها حَيًّا . فَإِذا أَمْكَنَنا خَديعَةُ الأَعْداءِ وَدَفْعُهُمْ إِلى ذَلِكَ المَكانِ ، سَقَطوا في الرِّمالِ المُتَحَرِّكَةِ وَابْتَلَعَتْهُمْ وَماتوا جَميعًا في الحالِ ؛ فَتَنْجو البِلادُ مِنْ شَرِّهِمْ إِلى الأَبَدِ .»

هَتَفَ الأَميرُ بِإِعْجابٍ : « يا لَها مِنْ فِكْرَةٍ رائِعَةٍ ! وَلَكِنْ كَيْفَ سَنَدْفَعُ هَؤُلاءِ الأَعْداءَ لِلذَّهابِ إِلى ذَلِكَ المَكانِ ؟»

قالَتْ نورُ العُيونِ : « لِنَحْصُلْ أَوَّلاً عَلى جَوادٍ ، وَسَأُخْبِرُكَ بِالباقي

في الطَّريقِ .»

تَسَلَّلَ الأَميرُ إِلى جِيادِ الأَعْداءِ ، وَانْتَقى جَوادًا قَوِيًّا فَامْتَطاهُ ، وَأَرْدَفَ نورَ العُيونِ خَلْفَهُ ، ثُمَّ اسْتَدارَ نَحْوَ الأَعْداءِ وَصاحَ بِصَوْتٍ جَهْوَرِيٍّ في شَجاعَةٍ : « إِنَّني الأَميرُ الَّذي جِئْتُمْ سَعْيًا لِقَتْلِهِ . فَلْيُسْرِعْ خَلْفي مَنْ يُريدُ القَبْضَ عَلَيَّ وَأَسْري .»

التَفَتَ الأَعْداءُ ذاهِلينَ عِنْدَما رَأَوُا الأَميرَ فَوْقَ صَهْوَةِ الجَوادِ ، وَأَسْرَعوا بِامْتِطاءِ جِيادِهِمْ ، وَمُطارَدَةِ الأَميرِ .

انْطَلَقَ الأَميرُ بِجَوادِهِ انْطِلاقَةَ السَّهْمِ ، وَنورُ العُيونِ خَلْفَهُ ، وَالكَلْبُ مُخْلِص يَنْبَحُ وَيَعْدو في أَثَرِهِما . وَأَشارَتْ نورُ العُيونِ ناحِيَةَ الشَّرْقِ بَعْدَ أَنْ تَعَرَّفَتْ عَلَيْهِ مِنِ اتِّجاهِ هُبوبِ الرّيحِ في ذَلِكَ الوَقْتِ مِنَ العامِ ، وَقالَتْ لِلأَميرِ : « قُدِ الجَوادَ في هَذا الاتِّجاهِ .»

زادَ الأَميرُ مِنْ سُرْعَةِ الجَوادِ في الاتِّجاهِ الَّذي أَشارَتْ إِلَيْهِ نورُ العُيونِ ، وَخُيولُ الأَعْداءِ تُطارِدُهُ . وَقَبْلَ أَنْ يَصِلَ جَوادُ الأَميرِ إِلى أَرْضِ الرِّمالِ المُتَحَرِّكَةِ ، كانَتْ نورُ العُيونِ قَدِ اسْتَطاعَتْ أَنْ تُقَدِّرَ الوَقْتَ اللاّزِمَ لِذَلِكَ ، ثُمَّ صاحَتْ في الأَميرِ : « لِنَقْفِزِ الآنَ مِنْ فَوْقِ الجَوادِ ؛ فَقَدْ صِرْنا عَلى مَشارِفِ أَرْضِ الرِّمالِ المُتَحَرِّكَةِ .»

احْتَوى الأَميرُ نورَ العُيونِ بِذِراعَيْهِ لِيَحْمِيَها مِنَ الارْتِطامِ ، ثُمَّ

قَفَزَ بِها مِنْ فَوْقِ الجَوادِ ، فَسَقَطَ الاثْنانِ فَوْقَ الأَرْضِ وَتَدَحْرَجا مُبْتَعِدَيْنِ ، وَاخْتَفَيا عَنِ الأَنْظارِ خَلْفَ صَخْرَةٍ كَبيرَةٍ دونَ أَنْ يُصابا بِسوءٍ ، سِوى بَعْضِ الخُدوشِ .

وَظَلَّ جَوادُهُما مُنْدَفِعاً في اتِّجاهِ أَرْضِ الرِّمالِ المُتَحَرِّكَةِ ، وَخُيولُ الأَعْداءِ تَرْكُضُ خَلْفَهُ ، دونَ أَنْ يَكْتَشِفوا شَيْئاً مِمَّا حَدَثَ لِلأَميرِ وَرَفيقَتِهِ بِسَبَبِ الظَّلامِ .

وَانْدَفَعَ جَوادُ الأَميرِ وَخُيولُ الأَعْداءِ تُطارِدُهُ نَحْوَ أَرْضِ الرِّمالِ المُتَحَرِّكَةِ ، دونَ أَنْ يَنْتَبِهوا إِلى حَقيقَتِها ، فَغاصوا فيها جَميعاً وَلَمْ يَتَمَكَّنوا مِنَ الخُروجِ مِنْها ، وَماتوا في الحالِ .

ابْتَهَجَ الأَميرُ بِما حَدَثَ ، وَقالَ لِنورِ العُيونِ : « إِنّي لا أَسْتَطيعُ أَنْ أوفِّيَكِ حَقَّكِ ، أَيَّتُها الفَتاةُ الشُّجاعَةُ الذَّكِيَّةُ ، مِنَ الشُّكْرِ وَالعِرْفانِ . لَقَدْ كُنْتِ خَيْراً مِنْ أَلْفِ فَتاةٍ مُبْصِرَةٍ بِحِكْمَتِكِ وَقُوَّةِ إِدْراكِكِ ، وَأَفْضَلَ مِنْ أَلْفِ فارِسٍ بِشَجاعَتِكِ وَحُسْنِ تَصَرُّفِكِ . وَلَنْ أَجِدَ في هَذا العالَمِ كُلِّهِ فَتاةً خَيْراً مِنْكِ لِتَكونَ مُسْتَشارِيَ الخاصَّ ، الَّذي أَعْتَمِدُ عَلَيْهِ وَأَثِقُ بِحِكْمَتِهِ وَذَكائِهِ ، وَأَسْتَشيرُهُ في كُلِّ أُمورِ البِلادِ الَّتي تَتَطَلَّبُ حِكْمَةً وَعَقْلاً راجِحاً وَبَصيرَةً نافِذَةً . وَفَوْقَ هَذا كُلِّهِ لَنْ أَجِدَ فَتاةً أَفْضَلَ مِنْكِ لِتَكونَ زَوْجَةً لي . »

سَعِدَتْ نورُ العُيونِ بِكَلِماتِ الأَميرِ لَها ، وَتَرَقْرَقَ الدَّمْعُ في عَيْنَيْها لِفَرْطِ فَرْحَتِها ، وَلَمْ تُصَدِّقْ أَنَّ الأَميرَ قَدِ اخْتارَها زَوْجَةً لَهُ رَغْمَ فَقْرِها وَكَفافِ بَصَرِها .

وَعادَ الأَميرُ إِلى قَصْرِهِ ، فَأَخْبَرَ الجَميعَ بِاخْتِيارِهِ نورَ العُيونِ لِتَكونَ أَميرَةَ البِلادِ وَمُسْتَشارَهُ الخاصَّ ؛ لِما تَتَمَتَّعُ بِهِ مِنْ ذَكاءٍ وَحِكْمَةٍ وَبَصيرَةٍ لا يَتَمَتَّعُ بِها المُبْصِرونَ .

وَتَزَوَّجَ الأَميرُ بِنورِ العُيونِ ، وَعاشا في سَعادَةٍ وَهَناءَةٍ ، وَعاشَ مَعَهُما والِداها ، وَكَلْبُها الأَمينُ الشُّجاعُ مُخْلِص .



المغامرات المثيرة

مكتبة لبنان
ساحة رياض الصلح - بيروت

رقم الكمبيوتر LLC 198221

